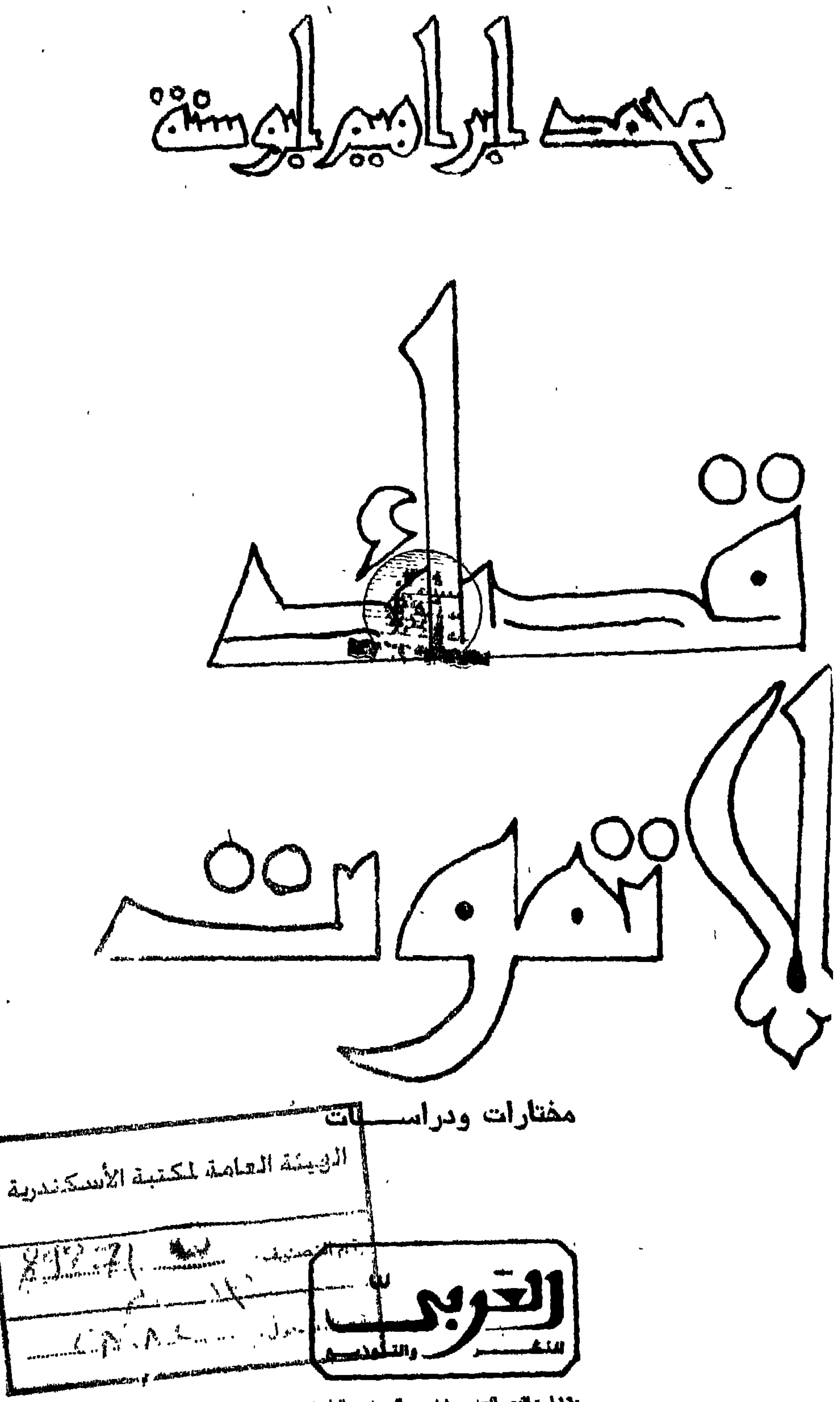
محمد إبراهيم أبو سنة

قصائد لا تموت

العربي
للنشر والتوزيع





مختارات ودراسات

العربي للنشر والتوزيع

٦٠ شارع القصر العيني – أمام روز اليوسف – القاهرة
تليفون ٢٧٣٦١٠ – ٣٧٤٨٣٢



مدخـــــل

ما هو الشعر ؟ سؤال من الأفضل ان يظل بلا اجابة حتى لانجازف باقتراح تعريف يحاول ان يقيس الافق وان يحلل زرقة البحر وان يصف صوت العصافير فى الربيع وخفقات القلب فى حضرة المحبوب وحرقه الاكباد عند فراق الاحباب . من الأفضل بدلا من تعريف السباحة أن نسبح معافى المياه الدافئة المعطرة التى تتدفق من سماء المتنبى وابى تمام وأبى العلاء المعرىء وقيس بن الملوح وسواهم . ان هذه المختارات التى اقدمهـــا للقارىء هى فى المقام الأول نوع من التعاطف مع القارىء فى الاقتراب من منابع تراثنا الشعرى من خلال أعذب نماذجه وأصدقها فى نفس الوقت — لقد خاض الدكتور طه حسين فى كتابه حديث الاربعـــاء جدلا مع رفيق متوهم حول جدوى الشعر القديم واظنه كان يتوجه بحديثه هذا الى عامة القراء الذين لا يسيغون لغة غير لغة عصرهم لسبب بسيط هو أن خاصة المثقفين والادباء يقرون بجمال هذا الشعر القديم من اعماق وجدانهم قال عميد الأدب العربى :

— « انما امر الأدب القديم عندى اشبه بحديقة طال عليها الزمن وأهملت اهمـــالا متصـــــلا ولم تنقطع عنها بعد ذلك مادة الحياة فمضت اشجارها وشجيراتها تنمو فى غير نظام هذا النمو المهمل المضطرب حتى اختلط امرها اختلاطا شديدا وحتى اصبح من العسير عليك وعلى امثالك ان تجدوا فيه سبيلا الى ماتحبون من النزهة والراحة الى جمال الزهـــر والشجر فأنتم قد ألفتم الحدائق التى يتعهدها البستانى اذا اصبح ويتعهدها اذا امسى وينسقها لكم تنسيقا » .

وقد كان الدكتور طه حسين رائد الدعوة الى التريض بين حدائق الشعر القديم ونحن نتبعه فى هذه الدعوة التى تقترب بنا من مصــــادر وجودنا الادبى ولكننا لا نذهب الى تراثنا لنتريض فقط بل لنحصل على غذائنا الضرورى للبقاء عربا فى عالم اكتسح القوميات والاجناس وصبغ الادب فى العالم كله بصبغة الحضارة الأوربية ان التوغل فى الماضى والنظر بثبات الى الامام البعيد هو وسيلتنا لجعل ذاتيتنا فعالة وايجابيـــــة . وربما يبدو اختيارى لهذه النصوص الرائعة غير منهجى من الناحية الأدبية او من الناحية التاريخيـــة ولكن ماجدوى المنهج ما دامت الحديقة كلهـــا عامرة بالثمار الطيبة . ولقد وقفت أمام آثارنا متعاطفا معجبا شديد التحيز لها دون ان افتعل منظارا عصريا للنظر اليها . ولا شك ان هذه المختارات وسير شعرائها انما توجد فى معظم كتب المختارات وربما قدمت من قبل الى القارىء بطريق او بأخرى ولكن قراءتى لهذه الآثار تأخذ مذاقهـــــا الخاص من تجربتى المتواضعة فى الفهـــم والعرض والتحليل وهى تجربة

تنبع من الحب والقلب اكثر مما تبع من الدراسة الاكاديمية العسيرة ولقد أنعش روحى وايقظ وجدانى هذا التجوال فى عصور هؤلاء الشعراء ولاعرف وقع هذه الرحلة ايها القارىء عليك قد تخرج من الهجير الى الصتيع من جمال الربيع الى ذبول الشتاء وقد تلفحك انفاس العشاق الذين اكتوت قلوبهم بالهجر والفراق وقد تجد ذلك ممتعا او شاقا او عاديا ولكن هذا حصاد رحلتى وهو حصاد يقدم لآلىء نادرة من خلال الربط بينها وبين اصحابها الذين كابدوا الحياة قبل ان يكابدوا الابداع ومنهم من كانت حياته ذاتها عملا مأساويا لاتستوعبه القصائد الصغيرة المفردة وانما قد تلمس حقيقته اعمال درامية كبرى مثل حياة الطغرائى التى كانت نموذجا طاغيا لقسوة الطموح وبطشه طموح أفقد النفس مذاق الحياة الانسانية بطيباتها المتاحة واوقعه فى الخوف الدائم والحذر الطائش والاصرار الجنونى على رغبة كان فيها هلاكه . حتى جاءت قصيدته لامية العجم تحمل اقسى وصف للعصر الذى عاش فيه وتنطوى على سوء الظن بالبشر اجمعين اصدقاء واعداء الاقارب والا باعد على السواء حتى ليقول :

اعدى عدوك من وثقت به	فحاذر الناس واصحبهم على دخل
وانما رجل الدنيا وواحدها	من لا يعول فى الدنيا على رجل

ان هذه الرؤية الفكرية التى تنبع من معاناة الذات الآيمة من الآخرين ولا تعترف بدورها هى فى خلق هذه المعاناة هى رؤية قريبة من رؤية أبى الطيب المتنبى الذى كان طموحا الى اقصى حدود الطموح ونال اقسى مصير على طموحه هذا وموقفه المتشكك والمتعالى من المجتمع الذى عاش فيه . وان كان المتنبى يفترق عن الطغرائى فى انه كان صعبا ولم يصل ابدا الى هدفه بينما الطغرائى وصل الى سدة الوزارة التى عاش حياته كلها يحلم بها ، ان مأساوية حياة ونهاية هذين الشاعرين تتجلى فى هذه المختارات بصورة واضحة بين القصائد الاخرى التى تنطوى تحت دموع الرثاء أو تأوهات العشاق . ولقد اتيح لى ايضا ان اجلو وجه هذه القصيدة الجميلة لكعب بن سعد الغنوى . هذه القصيدة التى تسفر عن صفات الفارس العربى النبيل فى سلوكه اليومى ومقصده من الحياة وتجاوزه لتفاهات المغانم الصغيرة وليس بغريب ان يكون الشعر بعد ذلك ديوان العرب فهو ليس مفخرتهم اللسانية فحسب ولكنه بحر الوجود العربى المترامى الشواطىء . حيث نعثر فيه على مخاوف هذا الوجود وتطلعاته ومغامراته واشواقه ولانهائيته وانعتاقه وعبوديته ايضا واذا كان لى ان اقدم هذه القراءات الشعرية مشفوعة برؤية تحليلية للعناصر الشعرية وللسيرة الذاتية لبعض الشعراء فان هدفى هو تأكيد الدعوة التى دعا اليها عميد الادب العربى من ناحية وتأكيد انتسابنا القوى الى تراثنا واعجابنا به ومحاولة جعله يمارس وجوده حيا بين حياتنا الراهنة دون ان يعنى هذا ان الحاضر يسلم الزمام للماضى ولا ان يشير الى الى ان الفردوس قابع فى العصور الاولى .واذا اتيح لى ان اكسب تعاطف القراء مع هذه المحاولة واحملهم على الرحيل معى الى عوالم هؤلاء الشعراء فقد ظفرت بما يفوق البغية من وراء تقديم هذا الكتاب .

محمد ابراهيم ابو سنه

« واحر قلباه »

لأبى الطيب المتنبى

واحر قلباه ممن قلبه شبم ... ومن بجسمي وحالى عنده سقم
مالى أكتم حبا قد برى جسدى ... وتدعى حب سيف الدولة الأمم
ان كان يجمعنا حب لغرته ... فليت أنا بقدر الحب نقتسم
قد زرته وسيوف الهند مغمدة ... وقد نظرت اليه والسيوف دم
فكان احسن خلق كلهم ... وكان احسن مافى الاحسن الشيم
فوت العدو الذى يممته ظفر ... فى طيه أسف فى طيه نعم
قد نابعنك شديدالخوف واصطنعت ... لك المهابة مالا تصنع البهم
الزمت نفسك شيئا ليس يلزمها ... ان لا يواريهم ارض ولا علم
اكلما رمت جيشا فانثنى هربا ... تصرفت بك فى آثاره الهمم
عليك هزمهم فى كل معترك ... وما عليك بهم عار اذا انهزموا
اما ترى ظفرا حلوا سوى ظفر ... تصافحت فيه بيض الهند واللمم
يا أعدل الناس الا فى معاملتى ... فيك الخصام وانت الخصم والحكم
أعيذها نظرات منك صادقة ... ان تحسبالشحم فيمنشحمه ورم
وما انتفاع اخى الدنيا بناظره ... اذا استوت عنده الانوار والظلم
سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا ... بأننى خير من تسعى به قدم
انا الذى نظر الاعمى الى ادبى ... واسمعت كلماتى من به صمم
انام ملء جفونى عن شواردها ... ويسهر الخلق جراها ويختصموا
وجاهل مده فى جهله ضحكى ... حتى أتته يد فراسة وفم
اذا رأيت نيوب الليث بارزة ... فلا تظنن ان الليث يبتسم
ومهجة مهجتى من هم صاحبها ... ادركتها بجواد ظهره حرم
رجلاه فى الركض رجل واليدان يد ... وفعله ما تريد الكف والقدم
ومرهف سرت بين الجحفلين به ... حتى ضربت وموج البحر يلتطم
الخيل والليل والبيداء تعرفنى ... والسيف والرمحوالقرطاس والقلم
صحبت فى الفلوات الوحش منفردا ... حتى تعجب منى القور والاكم
يا من يعز علينا ان نفارقهم ... وجداننا كل شىء بعدكم عدم
ما كان اخلقنا منكم بتكرمة ... لو أن امركم من أمرنا أمم
ان كان سركم ما قال حاسدنا ... فما لجرح اذا أرضاكم ألم
وبيننا لو رعيتم ذاك معرفة ... ان المعارف فى اهل النهى ذمم
كم تطلبون لنا عيبا فيعجزكم ... ويكره الله ما تأتون والكرم
ما أبعد العيب والنقصان من شرفى ... انا الثريا وذان الشيب والهرم
ليت الغمام الذى عندى صواعقه ... يزيلن الى من عنده الديم
ارى النوى يقتضينى كل مرحلة ... لا تستقل بها الوخادة الرسم
لئن تركن ضميرا عن ميا مننا ... ليحدثن لمن ودعتهم ندم

اذاترحلت عن قوم وقــد قــدروا ... الا تفارقهـــم فالرحلون هـــم
شر البلاد مكان لا صـــديق بـــه ... وشر ما يكسب الانسان ما يصـم
وشر ما قنصـــــته راحتى قنص ... شهب البزاة سواء فيه والرخـم
بأى لفظ تقول الشـعر زعنفـــة ... تجوز عندك لا عرب ولا عجـــم
هذا عتـــابك الا انه مقـــة ... قد ضـــمن الدر الا انه كلـــم

صاحب هذه القصيدة هو شاعر العرب الاكبر احمد بن الحسين ابن عبد الصمد الجعفى المعروف بأبى الطيب المتنبىء ذاع اسمه فى آفاق عصره حتى كنت تلتقى بشـــعره فى أية أرض عربية تقصدها كما كانت شخصيته عونا كبيرا لهذا الشـــعر على الذيوع لتميز هذه الشخصـــية بصفات نادرة فى مقدمتهـــا الكبرياء والطموح الغلاب وشـــهوة السلطان والملك فقد كان المتنبى شاعرا يعتقد انه خلق ليكون ملكا ويبدو ان هذا الاعتقاد مصدره معرفته الواسعة بشئون عصره وثقته المطلقة فى قدراته هذه القدرات التى جعل لها الشعر العظيم الذى سحر به المتنبى عصره قوة خاصة اقتحم بها الشاعر المدن والممالك والفلوات ظامئا الى تحقيق حلم يراه حقا بينما لم يكن فى الحقيقة اكثر من سراب. ولد المتنبى سنة ثلاث وثلاثمائة فى محلة يقـــال لها كنده بالكوفة وكانت الـــكوفة فى ذلك الوقت تعيش فترة قلقة بسبب ثورات القرامطة وتعج بالحركة الفكرية . تعلم فى مدارس العلويين وأتقن اللغـــــة العربية من خـــلال ادمانـــه لحفـــظ الجيد من الشـــعر وقد اتصـــف منذ صـــغره بالذكاء الشـــديد وقوة ذاكرته أتم تعليمـــــه فى بادية الســماوة حيث تتلمذ على لغة البادية الجزلة الفصيحة الصحيحة وما أن اكتملت له ادوات الشاعر الذى وعى ثقافة عصره السياسية والفكرية حتى بدأ فى التجوال تلهبه هذه النار التى تدفعه لطلب المجد فاتجـــه الى الشام وظل يمدح بعض الاغنياء والامراء حتى كانت سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة فاهتدى الى سيف الدولة .وكان هذا الامير يجسد آمال الشاعر اعظم تجسيد فقد كان شابا شجاعا مغوارا يعمل على تدعيم حدود دولته بالاغارة على البيزنطيين ورد غاراتهم . وجمع ســـيف الدولة حوله صـــفوة علماء وادباء العصر يستمع اليهم باحســـاس عميق وكان على دراية باللغـــة بشعرها ونثرها يقدر الشعراء ويغريهم حتى جعل من دولته بلاطا للادب والسياسة والفكر ووجد المتنبى فى هذا الامير نموذجا لما ينشد لنفسه فلزمه تسع سنوات قال فيها اعظم شعره فى مديح هذا الامير سيف الدولة وهى القصـــائد التى عرفت بالسيفيات ولكن مكانة المتنبى وشعره اغرت به الاعداء من الشعراء الذين طغى عليهم مجد المتنبى فأحالهم الى مجرد اشباح لشعراء لا يطمعون فى اكثر من التواجد فى بلاط الامير لا ينتظرون مجدا ولا مالا فقد استولى المتنبى على كل ذلك فبدأوا فى الكيد للشاعر العظيم حتى وجد المتنبى نفسه هدفا للنبال وتكاد هيبته تتعرض للمهانة بعد ان تهاون سيف الدولة فى دفع الاذى عنه وربما لأن سيف الدولة نفســـــه كان يضـــيق بالغرور الشديد الذى كان المتنبى لا يحاول اخفـــاء مظاهره بحـــال من الأحوال بل لقد كان كل من يرى المتنبى وهو ينشد سيف الدولة يرى فيه كبرياء الامير نفسه ولا شك ان هذه المظاهر كانت ذرائع منطقية ومقنعة

لهؤلاء الذين اولعوا بالدس والكيد لشاعر تياه يضع نفسه فوق الجميع وانتهى الموقف بالمتنبى بعد ان تدهور وضعه الادبى والنفسى الىمفارقة من يود الاقامة عنده ولكنكبرياءه الجريحة كانت تمده بالعزم علىمواصلة الرحلة الى مصر حيث يلمع سراب الامال مرة اخرى فى صحراء حياته ولعله ان يجد عند كافور الاخشيدى ما لم يجده فى كنف سيف الدولة ولقد كان يعتمد بالطبع على الخلافات السياسية القائمة فى ذلك الوقت بين هؤلاء الملوك والامراء . كان المتنبى يتوق الى ولاية ينصب نفسه أميرا عليها وذهب الى مصر ومدح كافور الاخشيدى وبالغ فى مدحه ولكن كافور خيب رجاءه فرحل مرة اخرى الى الكوفة يجرر اذيال الفشل والمرارة ثم رحل بعد ذلك الى فارس حيث تلقى دعوة من ابن العميد فرحل الى هناك ولكن الاقامة لم تطب له ويبدو أنه قد سئم وضع نفسه فىخدمة الملوك وان كان قد تلقى دعوة ايضا منعضدالدولةالبويهىسلطان شيراز وكان شابا مثقفا جوادا ولكن المتنبى آثر الرحيل الى مسقط راسه فى الكوفة . وعبر طريق العودة تربص اعداء المتنبى به ليقتلوه بجبل دير العاقول ويقال ان احد اصدقائه قد حذره من الكمين الذى وضع له ولكن المتنبى أبى ان يحتاط للامر ثقة فى نفسه وهكذا اوقع به اعداؤه وقتلوه لتصمت هذه القيثاره الرائعة التى عزفت للشعر العربى اعظم قصائده .
ولكن موت المتنبى بهذه الصورة المأساوية والتى تضع نهاية درامية لحياة بالغة التوتر والقلق والجموح والكبرياء والمجد فتحت الباب امام حياة جديدة لشعره وربما كانت هذه الحياة الجديدة هى اخلد ما يطمح اليه شاعر فقد تنافست الاقلام فى تناول شعره وحياته وتحقق له حلم تقصر عنه أحلام الولايات والامارات والسلطة الزائلة .

تأتى هذه القصيدة من شعر المتنبى فى مرحلة من أخطر مراحل حياته من الناحية التاريخية فهى اعلان تحرقه الزفرات وتطرزه الدموع عن فراق المتنبى لسيف الدولة بعد تسع سنوات من المجد والشعر والحلم .
وهى مفتتح لعصر غامض مجهول سوف تغرب فى نهايته شمس حياة الشاعر ومن هنا فهذه القصيدة تمثيل لفن المتنبى فى قمة توهجه وابراز خصائصه لأنها تأتى فى مفترق طريق صعب كان على الشاعر ان يختار بين كبريائه وبين طمأنينة يتجرع خلالها الهوان وقد آثر الشاعر شأن الفرسان ان يغامر بالطمأنينة والراحة الذليلة لكى يضرب للحظ اشق الطرق . ولكن الشاعر وهو يأخذ قرارا خاصا بحياتهيكشف لنا فىشعره الصراع الحقيقى وراء الظاهر الذى ترصده العيون الساذجة . لقد كان سيف الدولة يرى فى شعره المتنبى مرآة نقية لبطولتهوفروسيتهوتألقمجده كلاهما كان يبقى على الاخر لأن كلا منهما يمنح الآخر الرضى عن نفسه.
ومن هنا رأينا قصيدة الفراق مشحونة بهذه اللوعة التى لا تكون الا بين المحبين حين يحكم عليهم سيف الفراق بالرحيل .

ان القصيدة تبدأ بهذه الزفرة المتصاعدة من الكلمات التى كان المتنبى يعرف دقائقها فهذه الواو الممدودة فى البداية تعطى ايحاء بالرغبة فى اعلان الشكوى وعدم القدرة على احتمالها وكأنه يفتتح مرثية اليمةوكيف لا وهى نبوءة مبكرة بما سيلاقيه المتنبى منفشلوضياع بعد هذا الزمنالمجيد الذى انقطع وتبدد . هو يشكو حرارة العاطفة والحب ازاء قلب بارد جـامد لا يكن حبا ولا شوقا . هى شكوى من السقم الذى ســاقه الحب ومن الجفاء الذىيسكن القلوبالقاسيةويبدو أن الايحاء كانغير شاف فآثر أن يصرح ويجهر بهذه المحبة القوية الكافية فى نفس الشاعر لسيف الدولة . ان الشـــاعر يواجه الوشاة الذين يكيدون له عند الامير باعــلان الحب كأساس للعدل فى العلاقة وهو مدخل فى غاية الذكاء والمهارة والقوة ولما كان اعلان الحب يستدعى على الفور صورة المحبوب فقد اورد الشاعر هذه الصورة . والمتنبى يتحدث عن حالين لسيف الدولة حالة السلم وحالة الحرب فكان فى الحالين احسن خلق الله كلهم .

قد زرته وسيف الهند مغمـــدة   وقد نظرت اليـــه والسيوف دم

ان الشاعر هنـــا يقول لنا انه يحب لانه يعرف محبوبه جيدا يعرفه وقد رآهمسالما ورآه محاربا فهو حب الخبرة وهو حب مبصر رشيد ثم ساق مديحه فى اطار البأس والقوة اللائقة بامير شجاع فارس يحمى ثغور الدولة العربية امام بيزانطة ولا شك أن المبالغة وهى عصب الشعر عند المتنبى كله قد اخذت بتلابيب هذه الابيات التى تبدأ بقوله .

فوت العدو الذى يممته ظفر   فى طيـــه اسف فى طيـــه نعم

الى ان يقول :

عليك هزمهـــم فى كل معترك   وما عليك بهم عار اذا انهزموا

الى هنا نكون قد وقفنا مع الشاعر فى ثلاثة مواقف : الشكوى من ظلم المحبوب الذى لا يجازى على المحبة بمثلها ثم التصريح بهذا الحب المكنون الذى يتمنى الشاعر لو كان الحب اساس العدل وبقدر الحب يكون العطاء ثم هذا الوصف الخـــارجى المألوف فى شعر المتنبى والذى يرتفع احيانا الى الذرا وقد تهبط به المبالغة احيانا الى حضيض الافتعال والتكلف تتصـــل القصيدة بعد ان انقطعت بالاجـــزاء الوصفية تتصـــل العاطفة الجياشة واللوعة والحزن حين تخرج من صليل السيوف ومعارك سيف الدولة لتدخل الى صميم معركة المتنبى مع نفسه فى هذه القصيدة لقد باغ المتنبى ان بعض جلساء سيف الدولة يتقولون عايه فكانت هذه القصيدة صرخة عتاب ونبوءة خصام وعزما اكيدا على الفراق ولكنهقبل ان يفارق لابد ان يحارب معركته مع اعدائه اولا ومع سيف الدولة ثانيا ومع نفسه ثالثا : يتلطف الشاعر فى العتاب مقدما الحب كمهاد لدعواه وبلواه فى نفس الوقت : باعدل الناس الا فى معاملتى ، فيك الخصام

وأنت الخصم والحكم ثم يتطرق الى هؤلاء الذين يكبدون له ان المتنبى يعد فى مقدمة هؤلاء الشـــعراء الذين يخلبون الالبـــاب فى نفس الوقت الذى يسيطرون فيه على الاحساس بالوسائل الجمالية المتنوعة من خلال الالفاظ الجزلة النبيلة الملائمة والصورة الباهرة والموســيقى التى تزلزل الاذان بسحرها ولكن المتنبى الذى درس الفلسفة بملك شعره منطقا بالغ القوة والحســم مع صعوبة استخدام المنطق فى الشـــعر وهذا هو سر تفوق المتنبى الحقيقى بين الشعراء فهو قد مزج الحس والعقل معا بهذه القوة الخفية التى يملكها شعره . ولا شك ان ثقافة المتنبى الواسعة هى التى صنعت له هذه المقدرة الفائقة انه يضع المنطق الشعرى فى مقدمة حججه مع خصومه .

اعيذها نظرات منك صادقة ان تحسب الشحم فيمن شحمه ورم
وما انتفاع أخى الدنيا بناظره اذا اســتوت عنده الانوار والظلـم

ثم يقول فى موضع آخر

اذا رايت ثيوب الليث بارزة فلا تظنن ان الليــــث يبتســـــم

ان رسوخ ثقة المتنبى فى نفسه يهتز قليلا حين يطالعنا بهذه الابيات المباشرة الذاتية التى تعلن بشكل لا مدارة فيه عن غرور واضح ومبالغة متهافتة :

سيعلم الجميع ممن ضم مجلسنا بأننى خير من تســعى به قــدم
انا الذى نظر الاعمى الى أدبى واســمعت كلماتى من به صـمم

ان هذه الثقة تهتز لأن المتنبى يشعر فى اعماقه ان سيف الدولة قد بدأ يعطى اذنه للوشاة والحساد الذين كان الغيظ من المتنبى وغروره يكاد يفتك بهم ورغم هذه المبالغـــة التى لا تقنع احدا بصـــدقها الا ان قوة الشاعرية فيها تجعل المتنبى بعيدا عن السخرية منه بسبب هذه الابيات وليس ادل على ذلك من شيوع هذه الابيـــات واستخدامها وجريانهـــا مجرى الامثال والحكم فى بعض الاحيان ومن الذ ى لا يصدق المتنبى حين يقول .

الخيل والليل والبيداء تعرفنى والسيف والرمح والقرطاس والقلم

ويقال ان هذا البيت كان سببا فى قتله فقد حاول الهرب من مواجهة اعدائه عندما تربصوا له عند دير العاقول فقال له غلامه أتفر وانت القائل الخيل والليل الخ .

وتعود القصيدة بعد فاصل من الفخر الشديد والزهو الذى يدل على التعاسة الشديدة تعود القصيدة الى الصدق الفنى الى ذات الشـــــاعر

المحاصرة بين الاعداء وهو يفكر جديا فى الرحيل عنهم وتتصل مرة اخرى العواطف والمشاعر الرقيقة الحزينة وتعود الابيات الى هدفها .

يـــا من يعـــز علينـــا ان نفارقهم وجداننـــا كل شىء بعدكم عـــدم

اذن لقد كان المتنبى يضع صداقته بسيف الدولة فوق كل متـــاع محتمل من فراقه ويبدو ان فترة الاقامة الجيدة عند سيف الدولة قـــد الهته ولو بشـــكل مؤقت عن حلم حيـــاته وهى الولاية والسلطان . انه يخاطبه بلغة خاشعة وصور تنهل من حب حقيقى وتجاوز عن كل شىء ما عدا هذه الصلة التى يراها المتنبى فى قوة وجوده ذاتها .

ان كان سركم ما قـــال حاســـدنا فما لجـــرح اذا ارضاكمو الم

ولكن الشاعر يلتفت فى حساده وأعداءه عن يمين سيف الدولة ويساره ويراهم دائبين فى الانتقاص منه والبحث عن مثالبه ونشر عيوبه فيرمى اليهم بأحجاره . انهم فى شدة الغيظ من غروره وثقته بنفسه ولهذا فهو لا يجد ما يزيد من غيظهم ومن مضاعفة مرارتهم الا ان يبالغ فى هذا الغرور وتعظيم هذه الثقة بالنفس .

كم تطلبون لنا عيبـــا فيعجزكم ويكره الله مـــا تأتون والكرم
ما أبعد العيب والنقصان من شرفى أنا الثريا وذان الشيب والهرم

والقصيدة تتابع صـــعودها وهبوطها . اســـتقامتها وتلفتها الى الخلف واليمين واليسار ونقترب من نهايتها فيكشف المتنبى بعد ان صرح بالحب والكره والفخر والعتاب يكشف عن قراره التاريخى انه يضمر الرحيل عن هؤلاء القوم الذين اصبح يغص بينهم بطعامه ويشرق بمائه وكأنه يهىء ناقته للرحيل ويســـتعد لعبور الصحراء فى طريقـــه الى المجهول بعد ان تنفست احلامه فى صدره وتقدمت به السن فهو فى الثالثة والاربعين من عمره والامال بعيدة تطفح الابيات الاخيرة من القصيدة بالحسرة والندم والفخر والهجاء وكأنه فى الابيات السبعة الاخيرة يعيد ايجاز القصيدة كلها فهى بمثابة عرض مركز لعناصرها كلها انه يقول كلمته الاخيرة قبل ان يرحل .

أرى النوى يقتضينى كل مرحـــلة لا تستقل بها الوخادة الرســـم

الى ان يقول :

هذا عتـــابك الا انـــه قصـــة قد ضـــمن الدر الا انـــه كلم

لقد كان المتنبى دائما حريصا على انصاف نفسه وهو يرى الاخرين يسيئون الى مكانته العالية فكان يجازف براحته من اجل انقاذ كبريائه

ولقد جاءت قصيدته واحر قلباه واحدة من اصدق قصائده لانها صرخة يائس حائر ضائع واذا كان شعره قد رفع اسمه عاليا فقد كانت النار التى تبدع هذا الشعر تدفع به الى المعاناة القاسية والى مجابهة الاهوال وسواء كان النقاد قد انصفوه أو ظلموه حين عابوا عليه هرولته المستمرة وراء سراب الولايات وبريق السلطان المرواغ فان المتنبى كان صريع قدرة الذى الهب فى كيانه الجذوة المقدسة جذوة الشعر العظيم كما وضع فى هذه الكيان نفسه جذوة الطموح القاتل الذى ما كان بامكان الشاعر ان يغالبه ولا ان يكفكف من جموحه ذهب الشاعر وبقى الشعر — ومن يدرى ان حياة مختلفة عن حياته تلك كانت ستنجب لنا نفس هذا الشعر العظيم . رحم الله ابا الطيب المتنبى .



رثاء الجدة

لأبى الطيب المتنبى

القصـــــــيدة

الا لا أرى الاحداث مدحـــا ولاذما ... فما بطشها جهلا ولاكفها حلمـــــا
الى مثل ما كان الفتى مرجع الفتى ... يعود كمـــا ابدى ويكرى كما أرمى
لك الله من مفجوعة .. بحبيبهـــا ... قتيلة شوق غير ملحقها وصـــــما
احن الى الكأس التي شربت بهـــا ... واهوى لمثواها التراب وماضـــما
بكيت عليها خيفة فى حياتهـــــا ... وذاق كلانا ثكل صاحبه قدمـــــا
ولـــو قتـــل الهجر المحبين كلهـــم ... مضى بلد باق أجـــدت لـــه صرما
عرفت الليالى قبل ما صنعت بنـــا ... فلما دهتنى لم تزدنى بها علمـــــا
منافعهـــا ماضر فى نفـــع غيرهـــا ... تغذى وتروى ان تجوع وان تظما
اتاها كتابى بعد يأس وترحـــــة ... فماتت سرورا بى نمت بها غمـــــا
حـــرام على قلبـــى السرور فاننى ... اعد الذى ماتت به بعدها ســـــما
تعجب من لفظى وخطى كأنمـــــا ... تر ىبحروف السطر أغربة عصما
وتلثمــــــه حتى اثـــــار مـــداده ... محاجر عينيهـــا وأنيابها ســـحما
رقا دمعها الجارى وجفت جفونها ... وفارق حبى قلبهـــا بعد ما ادمى
ولـــم يسلها الا المنايا وانمـــــا ... اشد من السقم الذىأذهب السقما
طلبت لها حظـــــا ففاتت وفاتنى ... وقد رضيت بى لورضيت بها قسما
فاصبحت أستسقى الغمام لقبرها ... وقدكنتأستسقىالوغا والقناالصما
وكنت قبيل الموت استعظم النوى فقد صارت الصغرى التى كانت الكبرى
هبينى أخذت الثأر فيك من العدى ... فكيف بأخذ الثـــأر فيك من الحمى
وما انسدت الدنيـــا على لضيقها ... ولكن طرفا لا أراك به اعمــــــى
فـــــوا اســـــفا ألا أكب مقبـــلا ... لراسك والصدر الذى ملئا حزمـــا
وألا ألاقى روحـــــك الطيب الذى ... كأن ذكى المسك كان له جســــما
ولو لـــم تكونى بنت أكرم والـــد ... لكان أباك الضخم كونك لى امـــا
لئن لذ يوم الشــــــامتين بيومهـــا ... لقد ولدت منى لأنفهـــــم رغمـــا
تغرب لامستعظما غير نفســــــه ... ولا قابلا الا لخــــالقه حكمـــــا
ولا ســــــالكا الافؤاد عجاجـــــة ... ولا واجـــدا الا لمكرمة طعمـــــا
يقولون لى مـــــا انت فى كل بلدة ... وما تبتغى؟ ما ابتغى جل ان يسمى
كأن بنيهـــــم عالمون بأننـــــــى ... جلوب اليهم من معادنه اليتمـــــا
وما الجمع بين الماء والنار فى يدى ... بأصعب من أن اجمع الجد والفهما
ولكننى مســـــتنصر بذبابـــــــه ... ومرتكب فى كل حال به الغشـــما

وجاعله يوم اللقـــاء تحيتـــى — والا فلست السيد البطـل القرما
اذا فل عزمى عن مدى خوف بعده — فأبعد شىء ممكن لم يجد عزمـــا
وانى لمن قـــوم كأن نفوســـهم — بها انف أن تسكن اللحـم والعظما
كذا انايادنيا اذا اشـئت فاذهبى — ويا نفس زيدى فى كرائهها قدمـــا
فلا عبرت بى ســـاعة لا تعزنى — ولا صحبتنى مهجـة تقبل الظلما

شـــاعر هذه القصيدة هو ابو الطيب احمد بن الحسين الجعفى الكندى الكوفى المعروف فى تاريخ الادب العربى بالمتنبى وما من شاعر فى العربية حظى بمكانته الادبية وعلو شـأنه فهو اكثر الشعراء اثارة للاهتمام والجدل والاختلاف والاتفاق يحبه الذين يحبونه بافراط يدنو من العشق ، ولا يستطيع من ينفر من عجبه الزائد بنفســه الا الاحترام لفنه والتقدير لشـعره وقد يضعه النقاد والباحثون فى مقدمة شـعراء العربية على الاطلاق وقد يقدم بعض الباحثين غيره عليه ولكن اجماع المتطرفين والمعتدلين منعقد حول وضعه فى الصدر الاول من قافـــلة الشعر العربى .

واذا كان شعر المتنبى بما يتميز به من فخامة وجلال وسطوة قد جعل منه محور الكثير من الدراسات العميقة المتقصية الا ان شخصيته الفريدة هى الأخرى كانت سببا قويا لدفع موجة الاهتمام به الى اماد بعيدة حقا .

ولد المتنبى بالكوفه عام ٣٠٣هـ . اى فى بداية العقد الرابـــع الهجرى وهو العقد الذى وصفه الباحثون وفى مقدمتهم الدكتور طــه حسين بالاضطراب السياسى والاجتماعى والازدهار الفكرى . ولد فى محله كنده ونسب اليها ولقب بكندى وما ان ترعرع وادرك بعض شئون الدنيا حتى اغرم بعلوم العربية غراما شديدا كان نبوءة بمـا يعتمل فى ذاته من موهبة كبيرة تستعد للعطاء الزاخر العظيم اختلفت الآراء حول نسبه وقد اغفل هو الحديث عن هذا النسب اغفالا يوحى بأنه لم يكن يفخر به وقيل ان اباه كان سقاء . يقول الدكتور طه حسين كان للمتنبى أب وجد ولكن المؤرخين والنسابين لا يعرفون من أمر جده قليلا ولا كثيرا ويكادون يختلفون فى اســمه . اما ابوه فقد زعموا انهم كانو يعرفون عنه شيئا يسـيرا جدا : كانوا يزعمون ان ابا المتنبى كان سقاء فى الكوفه تحدث المؤرخون بذلك وهم بين متحدث به يريد ان يرفع من شأن المتنبى الذى انحدر من رجل حقير فملأ الدنيا وشغل الناس وبين متحدث بذلك ليضع من شأن المتنبى الذى انحدر من رجل حقير فورث عنه الحقارة . كان أبوه يبيـــع المـاء على النـــاس وكان هو يبيـــع مـــاء وجهــه على الممدوحين وما اظن ان الذين ذكروا مهنة الحسين قد قصدوا الى اثبات الحق من حيث هو حق وتســجيل التاريخ من حيث هو تاريخ وانما قصدوا الى ما ذكرت لك :الى الرفع من شأن المتنبى او الوضع من قدره فكانهم اذن لم يصنعوا شيئا وكأنهم اذن لم يعرفوا من امر المتنبى الا ما عرفوا من امر جده اى لم يعرفوا شيئا ، ومهما يكن من

شيء فقد عرف المتنبي ان شفاء نفسه من تعلم اللغة لا يكون الا بالارتحال الى البادية فذهب الى بادية بني كلب وهو بعد فتى لا يزيد عمره على عشرين سنة فأقام بينهم مدة ينشدهم من شعره ويأخذ عنهم اللغة اذ كانت لا تزال صحيحة بالبادية . وقيل ان ابا الطيب قد ادعى النبوة في هذه البادية وتبعه بعض الاعراب فخرج اليه لؤلؤ امير حمص وقبض عليه وسجنه فترة من الوقت ثم استتابه واطلقه .
ولصقت به صفة المتنبي بعد خروجه من السجن ولازمته طوال حياته وسافرت بعد ذلك في تاريخ الادب حتى الآن. وبعد خروج المتنبي من سجنه اتجه الى مدح الامراء والرؤساء وكان سيف الدولة الحمداني يجتمع في بلاطه بصفوة علماء وشعراء عصره . فقد كان حارس الحدود الشمالية للامة العربية فلحق به المتنبي عام ٣٣٧هـ واقام عنده تسع سنوات هي قمة حياته وشعره . كان سيف الدولة فارسا شجاعا محبا للعلم والادب وفيا للقيم العربية الاصيلة يعرف اقدار العلماء والشعراء ويصلهم ورأى فيه المتنبي صورة حية لما كان يتمناه لنفسه . كان المتنبي تواقا للامارة والسيادة يرى نفسه فوق الشعر والشعراء فكأنه رأى في سيف الدولة حلما متجسدا لأمانيه واشواقه ومن هنا كانت هذه الحرارة التي تضج بها قصائده وهذا الصدق الذي يهز نفس المتلقي لشعره . فقد كان حبه لسيف الدولة عظيما لثلاثة اسباب : اولا لانه فارس الأمة وحارس قيمها فهو رمز لمجموعة من القيم التاريخية والانسانية كان المتنبي اول من يعرف قيمتها والسبب الثاني ان سيف الدولة كان النموذج الحي لطموح المتنبي فقد كان يرى فيه صورة من نفسه وكأنه وهو يمدحه انما يمدح نفسه من هنا هذه العلاقة القوية التي قامت في نفس وشعر المتنبي حتى لا يجد المرء في هذا الشعر بوناشاسعا بين صورة الممدوح وصورة المادح في رتبة المجد .
والسبب الثالث ان المتنبي كان يتوسل بنفوذ اميره لكي يصل الى احلامه هو الخاصة وما يرجوه من مجد لنفسه . ولكن المقادير قد قوضت احلام الشاعر في السلطة ودمرت علاقة المتنبي بسيف الدولة ولعبت الوشاية والحسد دورا في المكيدة التي دفعت المتنبي الى مغادرة حلب عام ٣٤٦هـ متجها الى دمشق ثم بعد ذلك الى مصر حيث قصد كافور الاخشيدي الذي خيب اماله فمدحه وهجاه وتركه في النهاية متسللا الى بغداد ثم الى بلاد فارس وشيراز مدح عضد الدولة بن بوية فاجزل عطيته ثم انصرف من عنده راجعا الى بغداد فالكوفة عام ٣٥٤هـ وفي الطريق تعرض له فاتك بن ابي جهل فقاتل الشاعر حتى قتل مع ولده وغلامه على مقربة من دير العاقول من الجانب الغربي من سواد بغداد — وبهذا اختتمت حياة هذا الشاعر التياه بنفسه وسط المخاطر التي كان يتحدث عنها كقدر ملازم له . وهذه النهاية مطابقة لحركة هذه النفس الجياشة بالقلق والتوتر والطموح فلم تعرف سكينة في حياتها .

والقصيدة التي نحن بصددها قالها الشاعر في رثاء جدته وتقول الروايات ان كتابا من جدته لامه قد ورد عليه وفي هذا الكتاب تشكو

الجدة لابن ابنتها المتنبى شوقا اليه وطول غيبته عنهـــا فتوجه
العراق ولم يمكنه دخول الكوفة على حالته تلك فانحدر الى بغـ
وكانت جدته قد يئست منه فكتب اليها كتـــابا يسألها المسير
فقبلت وضمته لقلبها سرورا به وغلب الفرح على قلبها فقتلها .
هذه القصيدة الصادقة التى تعتصرها اللوعة ويسيطر عليها الال
وقد ســئل اعرابى : ما بال المرثى اصدق اشعاركم قال لاننا نقو
واكبادنا تحترق .فهل كانت كبد المتنبى تحترق حين قال هذه القص
ان غربة الشاعر المتصلة واختفاء اسرته يجعل لهذه الجدة التى
ان صلته بها كانت عميقة مكانة كبيرة واساسية فى حياته فهى
الذى يربطه بأصله فى الدنيا . فهو يواجه كل يوم اعداء لشعره .
ومنافسه لشخصه بسبب اتجاهاته الفكرية واحقادا تنمـــو من
الذى يسببه اعتزازه بنفسه لدرجة تجعله على وشك احتقار الآ
ومن هنا كان لصوت الاسرة المتجسد فى نداء جدته وشـــوقها الي
لهذا الصوت قداسة فى قلبه . لانه صوت يحمل له الحب الـ
والعاطفة المجردة من الغرض والانتمـــاء الحقيقى انتمـــاء الدم
لا يعرف التغير . ان حنان هذه الجدة هو الذى جعل فقدانها
غاية الألم لنفس هذا الشاعر الذى اعتاد المخاطر وها هو يبدو
على صدر جدته . فليس ثمة شك فى أن المتنبى كان يحن وسط
المعارك الادبية والسياسية الى هذا الحنـــان الدافق الذى تفيذ
قلوب الامهات والجدات والذى كان الشاعر اشد حاجـــة اليه
الاحقاد التى تحيط به . والقصيدة تحمل كل خصائص المتنبى الف
ففى لغتها هذا الجلال الباهر الذى يتجلى فى حساسية الاختيار ا
للكلمة القوية الفنية بالالات والتى تلعب فى علاقاتهـــا بالكلمات ا
وفى موقعها من الجملة دورا اساسيا فى بناء صورة شعرية تجم
الحسى والمعنوى فى حرارة وصـــــدق وخيال بعيد قادر على الت
والادهاش والاقناع فى نفس الوقت وفى القصيدة هذه الموسيقى ا
الثقيلة الممتدة حيث اختار لها بحر الطويل بابعاده الواسعة . و
كذلك صوره القوية الجامحة التى تتجاوز الواقع الى التجريد فى
من المبالغة المسرفة احيانا والمعقولة أحيانا اخرى ولكن اهم ما
الى انتماء هذه القصيدة الى شاعرها المتنبى هو وجود الشاعر
كبريائه وفخره بنفسه . هذه الذاتية الواضحة التى كان ينتقل
الشاعر فى كل بقعة يرتحل اليها وفى كل قصيدة يقولها . حـ
قصيدة حزينة من قصائد الرثاء لا ينسى المتنبى نفسه وشجاعته
بنفسه . وتبدأ القصيدة ككل قصائد الرثاء بالتأمل الحزين فى طب
هذا الموت المفاجىء الذى يصيب الكائنات فيسلبها هذه الهبة الغ
المقدسة . الحياة ـــ ان الشاعر يبدأ متماسكا يكاد يعلو على ا
ويكاد يلجأ لتعزية نفسه وهذا العزاء الذى يلجأ اليه انما هو
من خبرته بمصائب الدهر ونوائبه فهذه الاحداث الأليمة انما هى
غير منطقى وغير معقول خال من الارادة والقصد وهى بهذا لا تد
اللوم او الذم لأن اللوم والذم يقومان على معيارى الخير والشر
ينبعان من الارادة وما دامت هذه الاحداث خالية من القصد والاراد

لاتستحق الثناء او القدح . ثم يقرر الشاعر ان العدم هو الغاية وان النهاية هى نفسها البداية هذه الدورة الابدية التى تشمل الوجود والعدم فالمرء محكوم بالعودة الى ما كان عليه والى العدم اذن سوف يصير ولسوف ترجع الزيادة النقص من جديد . ان المتنبى لا يتمهل على اعتاب القصيدة فيلقى الينا بحكمته الثابتة المؤكدة التى اطلعته عليها خبرته بهذه الدنيا وبعد ذلك يذهب الى التفجع على هذه الجدة العزيزة . وهو يرى أن الشوق هو الذى قتلها شوقها اليه ومن هنا كانت لوعته . هذا الشوق البرىء الطاهر لأنه شوق الام الى ابنها او الجدة الى حفيدها . وها هو يحن الى الموت طلبا للقرب منها ويعشق التراب وما ضم فى احشائه من اجلها ويلجأ المتنبى لمبالغاته المعتادة فيرى ان هجرها كفيل بقتل البلد الذى رحلت عنه لو كان الهجر يقتل المحبين . ويؤكد من جديد معرفته بالليالى وما تجلبه من محن فهو لا يهتز ويكاد لايكترث فهو يرى ان هذه الداهية التى نزلت به بوفاة جدته لم تزده علما بما تصنعه الليالى . هو خبير مجرب ذاق حلو الايام ومرها ولعل مرها اكثر من حلوها لديه وهذا يذكرنا بنفس موقفه الذى يقول فيه :

وصرت اذا أصابتنى سهام ... تكسرت النصال على النصال
وهان فما أبالى بالرزايا ... لأنى ما انتفعت بأن ابالى

وها هو فن المتنبى يتجلى فى هذه المقابلة بين السرور والغم فى البيت الذى يقول فيه :

أتاها كتابى بعد يأس وترحة ... فماتت سرورا بى فمت بها غما

ها هو يصنع من المفارقة صورة مؤثرة من صوره التى يمتلىء بها شعره حين يقابل بين السرور والغم وبين «بى وبها» فهى سرت به اى بكتابه وهو اغتم بها اى بنبأ وفاتها . وليست المفارقة فقط هى التى تكشف عن فنية المتنبى فهى حيلة تقليدية لدى الشعراء وانما يميزه الايجاز الشديد وهنا يسوى بين موتها الحقيقى وموته المجازى . ثم يحرم الشاعر على نفسه السرور هذا القاتل الذى أودى بحياة جدة الشاعر ويعتبره الشاعر سما محرما على نفسه وهو تحريم غريب لأن الفرح كالحزن يغزو النفس فلا تقدر على مقاومته ولكن هى مبالغات المتنبى .وأبيات القصيدة تتتابع وهى تمزج بين صورة الجدة التى جاءها كتاب حفيدها فقبلته وتعجبت من خطه وسطوره كأنها ترى نوعا غريبا من الغربان وهى التى يوجد بجناحها بياض . ولا شك أن عجبها من هذا الخط انما هو لشدة شوقها اليه تمزج هذه الصورة بلوعة نفسه. وها هو يصور تمكن حبه من قلبها فهو حب قوى ثابت لم تستطع الغربة والايام أن تدفع به الى السلوان أو النسيان وانما هو الموت وحده الذى قهر هذا الحب الغلاب فكأنه يرى أن الموت وحده وهو الذى يعد اقوى من حبها له وهو يعتبر هذا الحب والشوق والحنين

نوعا من السقم لا يغلبه الا ما هو اشد منه فالموت اقوى منه لانه هو الذى أذهبه .

ولم يسلها الا المنايا وانما   اشد من السقم الذى أذهب السقما

وها هو الشاعر يعبر عن سبب غربته فى البلاد البعيدة وكأنه يندم لفراقه لها وبعده عنها ولكنه يتعزى بأن هذه الفرقة انما كانت لطلب حظه من الرزق ومن اجلها ايضا فهو يسعى فى الارض من اجلهـا ولكن هذا الحظ قد فاتها وفاته هو ايضا . ويظهر ندمه واضحا حين يقول : وقد رضيت بها قسما فكأنه يقول بأنهما كانا كافيين كل منهما للآخر بدون هذه الرحلة وهذه الغربة . وها هو يستسقى الغمام لقبرهـا بعد أن كان يستسقى اى يطلب الحروب والمعارك . وكأن الشاعر يرى أن الفراق والغربة انما هما شىء عظيم ثقيل الوطأة على النفس فكيف يرى الموت الآن لقد اصبح الفراق والغربة والترحال فى الارض شيئا هينا صغيرا بجانب هذا الموت الذى صارت اليه . وها هو يحاورها بمنطق الواقع وبمنطق واسلوب حياته الذى داب عليـه فهو لا ينى يأخذ بثأره من أعدائه ولكن كيف يأخذ بثأرها من الحمى .

هبينى أخذت الثأر فيك من العدى فكيف يأخذ الثأر فيك من الحمى

وبعد هذا البيت القائم على المنطق المثير المدهش هذا المنطق المقنـع المسكت اذا به يقفز الى بيت من اجمل أبيات القصـيدة بل انه من اجمل الابيات فى الشعر العربى قاطبة . فها هو الحزن قد بدأ يمسك بوجدان الشاعر ويملك عليه حواسه حتى لقد بدت الدنيا مغلقة المنافذ امامه . وكأنه يقف محاصرا لا يعرف كيف يتجه وقد سدت أمامه الطرق وها هو يختبر بشاعريته الرائعة تأثير صوره البالغة الايحاء والدلالة على الحزن والفقد . انه يقف حائرا محاصرا فهل الدنيا اغلقت دونه الطرق أم انه لا يتحرك من مكانه لأنه لا يرى شيئا انه يتوهم هنـا مجموعة من الاخيلة وهو يحسم هذا الموقف مبرهنا على صدق عاطفته وقوة احزانه وشعوره بالحصار بهذا البيت الرائع .

وما انسـدت الدنيا على لضيقها   ولـكن طرفا لا اراك به اعمـى

هو واقف مكانه وهل يقف الا المحاصر او الاعمى نعم العمى هنا هو عدم رؤيتها أمامه وكأن الدنيا كلها لا تكفى عوضا عنهـا . وكأن القصيدة بهذا البيت قد وصلت الى ذروة حزنها وتفجعها ومرارتها . لان القصيدة تنعطف بعد بيتين عاديين هما :

فـوا اسـفا الا اكب مقبـلا   لراسك والصدر اللذى ملئا حزما

والا الاقـى روحـك الطيب الذى   كأن ذكى المسك كان له جسـما

تنعطف القصيدة فى اتجاه جديد . اتجاه لا يناسب المقام . ان المتنبى يتجه الى الفخر الشديد بنفسه حتى فى قصيدة رثاء جدته فما هو تفسير ذلك . ربما كان تعليل ذلك ان الشاعر وهو محاط بعداوات شديدة يشعر كأن هذا الحادث وانما يصور لأعدائه أن الضعف قد حل به وان ركنه قد وهن فهو يعلن بثبات ورسوخ عن مفاخره وربما كانت معارك الشاعر الكثيرة الطاحنة تملأ نفسه فلا تترك فيها فراغا لتأمل شيء آخر فى الحياة . ها هو الشاعر يتصور أن اعداءه ان كانوا يشمتون به فى هذا اليوم فقد جاء رغما لانفهم ثم تستمر القصيدة فى اتجاه الفخر بالنفس فخرا يحمل الكثير من المبالغات والقسوة على الآخرين . وهو فخر يوحى بنفس لا تعرف الطمأنينة تتوجس دائما الشر من الاعداء . هو يلجأ الى نوع من التماسك المصطنع ليدارى هذا الخوف الشديد الذى يسكن نفسه .

تغرب لا مستعظما غير نفسه ... ولا قابلا الا لخالقه حكما
ولا سالكا الا فؤاد عجاجة ... ولا واجدا الا لمكرمة طعما
يقولون لى ما انت فى كل بلدة ... وما تبتغى ما ابتغى جل ان يسمى

ويستمر الشاعر فى مبالغاته حتى يقول :

وانى لمن قوم كان نفوسهم ... بها انف أن تسكن اللحم العظما

وكما بدأ المتنبى بهذا التدبر الذى يعرف مذاق الايام ينهى قصيدته بتأكيد فهمه لها وهو فهم يدعوه الى كراهيتها ويدعو هو نفسه الى المزيد من الكراهية لها .

كذا انت يا دنيا اذا شئت فاذهبى ... ويا نفس زيدى فى كرائهها قدما
فلا عبرت بى ساعة لا تعزنى ... ولا صحبتنى مهجة تقبل الظلما

فهل هى قصيدة فى رثاء الجدة ام قصيدة فى الفخر . ام نحن امام قصيدتين لهما غرضان مختلفان ؟ هذه هى شخصية المتنبى تؤكد وجودها وضيقها بمن حولها ومعرفتها المتشائمة بالحياة ولكن مهما يكن موقف الشاعر الفكرى الا ان شعره يظل محلقا فى الذرى التى اعتاد دائما التحليق عندها .

مرثيـــة

« أحسن بالواجد من وجده »

لأبى العلاء المعرى

احسن بالواجد من وجده … صبر يعيد النار فى زنده
ومن أبى فى الرزء الا الأسى … كان بكاه منتهى جهده
فليذرف الجفن على جعفر … ان كان لم يفتح على نده
والشيء لا يكثر مداحه … الا اذا قيس الى ضده
لولا غضى نجد وقلامه … لم يثن بالطيب على رنده
ليس الذى يبكى على وصله … مثل الذى يبكى على صده
والطرف يرتاح الى غمضه … وليس يرتاح الى سهده
كان الأسى فرضا لوان الردى … قال لنا افدوه فلم نفده
هل هو الا طالع للهدى … سار من الترب الى سعده
فبات أدنى من يد بيننا … كأنه الكوكب فى بعده
يا دهر يا منجز ايعاده … ومخلف المأمول من وعده
أى جديد لك لم تبله … وأى أقرانك لم ترده
تستأسر العقبان فى جوها … وتنزل الاعصم من فنده
ارى ذوى الفضل واضدادهم … يجمعهم سيلك فى مده
ان لم يكن رشد الفتى نافعا … فغيه أنفع من رشده
تجربة الدنيا وافعالها … حثت اخا الزهد على زهده
والقلب من اهوائه عابد … ما يعبد الكافر من بده
ان زمانى برزياه لى … صيرنى امرح فى قده
كأننا فى كفه ما له … ينفق ما يختار من نقده
لو عرف الانسان مقداره … لم يفخر المولى على عبده
امس الذى مر على قربه … يعجز أهل الارض عن رده
أضحى الذى أجل فى سنه … مثل الذى عوجل فى مهده
ولا يبالى الميت فى قبره … بذمه شيع ام حمده
والواحد المفرد فى حتفه … كالحاشد المكثر فى حشده
وحالة الباكى لآبائه … كحالة الباكى على ولده
ما رغبة الحى بأبنائه … عما جنى الموت على جده
ومجده افعاله لا الذى … من قبله كان ولا بعده
لولا سجاياه وأخلاقه … لكان كالمعدوم فى وجده
تشتاق أيار نفوس الورى … وانما الشوق الى ورده
تدعو بطول العمر افواهنا … لمن تناهى القلب فى وده
يسر ان مد بقاء له … وكل ما يكره فى مده
افضل مافى النفس يغتالها … فنستعيذ بالله من جنده

فآفة العاشــــق من طرفـــــه — وآفـــة الصـــــارم من حــــــده
كم صــــائن عن قبله خــــده — ســــلطت الارض على خــــده
وحـــــامل ثقل الثرى جيــــده — وكان يشكو الثقـــــل من عقـــده
ورب ظمــــآن الى مــــورد — والمــــوت لو يعلـــــم فى ورده
ومرســـل الغـــــارة مبثوثـــــة — مــــن أدهــــم اللون ومن ورده
يخوض بحـــــرا نقعـــه مــــاؤه — يحمـــله الســـــابح فى لبــــده
اشـــجع من قلب خطيـــــة — على طويـــل البــــاع ممتـــــده
يرى وقـــوع الزرق فى درعـــه — مثـــل وقوع الزرق فى جلـــده
لا يصـــــل الرمح الى طرفــــه — ولا الى المحـــكم مـــن سرده
يلقى عليه الطعن القـــاءك الحسب على المسرع فى عقـــده
بلحظــــة منه فمـــاد ونهـــا — يرد غرب الجيش عن قصـــــده
امهــــله الدهــــر فأودى بــــه — مبيضــــة يحدى بمســــوده
فيا أخـــا المفقـــود عن خمســـة — كالشهب ما ســــلاك عن فقـــده
جـــــاءك هذا الحـــزن مستجديا — اجـــرك فى الصبر فلا تجـــده
ســــلم الى الله فكل الـــــذى — ســــاءك او سرك من عنـــده
لا يعدم الاســـــمر فى غابـــــه — حتفـــا ولا الابيض فى غمـــده
ان الـــذى الوحشــــة فى داره — تؤنســـــه الرحمـــة فى لحـــده
لا اوحشت دارك من شـــمسها — ولا خـــلا غابـــك من اســــده

شاعر هذه المرثية التى نزود بنا طريق الحكمة والتأمل البصير فى شأن الموت والحياة هو أبو العلاء المعرى . رهين المحبسين كما اشتهر فى تاريخ الادب العربى ولد الشـــاعر ابو العلاء احمد بن عبد الله بن سليمان المعرى التنوخى عام ٣٦٣هـ بمعرة النعمان ومات بها عـــام ٤٤٩هـ . وبين الميلاد والموت رحلة حياة قلما شهد لها التاريخ الادبى نظيرا . فرغم آفة العمى التى لحقت به وهو فى الثالثة من عمره الا انه كان عبقرية فنية تتجاوز بعطائها نطاق عصره وتمتد ببصيرتها فى الزمان والمكان والكائنات فتبدع هذه الروائع الشعرية الخـــالدة . كان عصر الشـــاعر وهو القرن الرابع الهجرى مليئا بالاضطرابات السياســية والاقتصـــادية والاجتماعية نتيجة لتدهور كيان الامبراطورية الاســلامية وانقسامها الى دويلات تغلى بالاحقاد والفتن والمؤامرات .وكان مثل هذا العصر باعثا وبالحاح شـــديد على اعمال الفكر فى شـــئونه . وكانت المرارة هى حصاد من يضع فكره وعقله فى معتركه .

قام الشاعر باعداد نفسه اعدادا هائلا ليقوم بدور الشــــاعر الفيلسوف المفكر فكان اعجوبة فى علمه وذكائه وفهمه يقول عن نفسه « ومنذ فارقت العشرين من العمر ما حدثت نفسى باجتـــــداء علم من عراقى ولا شامى وانصرفت وماء وجهى فى سقاء غير سرب لم أرق منه قطرة فى طلب أدب ولا مال » .

رحل الى بغداد عاصمة الخلافة المتداعية وهو يحلم باعترافهـ
بشأنه الخطير . وقيلت آراء كثيرة فى أسباب رحلته الى بغداد و
فى السادسة والثلاثين من العمر ولكنه دفع عن نفسه كل ادعاء
ذهب الى بغداد طلبا للمال او الشكوى من ظلم لحق به ولكنه ذ
طلبا للعلم وحبا فى خزائن كتبها ولكن بغداد اساءت اليه فلم تحـ
ضيافته ولقى الاهانة من بعض العلماء والنحاة وتروى الدكتورة
الشاطىء فى كتابها عن أبى العلاء هذه الواقعة : يذكرون أن أبا الـ
كان يوما بمجلس المرتضى وقد جاء ذكر المتنبى فتنقصه المرتضى وجـ
يتتبع عيوبه فقال أبو العلاء لو لم يكن للمتنبى من الشعر الا قصيد
لك يا منازل فى القلوب منازل د

لك يا منازل فى القلوب منازل لكفاه فضلا فغضب السيد المرتضى وأمـ
فسحب برجله، واخرج مهانا من مجلسه وقال لمن يحضرونه : أتدرون
شىء اراد الاعمى يذكر هذه القصيدة ؟ فان للمتنبى ما هو أجود منهـ
يذكره قالوا النقيب السيد أعرف فقال اراد قوله :

واذا أتتك مذمتى من ناقص فهى الشهادة لى بانى كامل

فاذا أضفنا الى هذه الاهانة اهانات أخرى سبقتها فهمنا
عودته مثقل النفس من بغداد عازفا عن الناس حزينا كئيبا معتزلا مؤ
جدران بيته على اتساع الدنيا كلها . كان نباتيا لا يأكل اللحم .
نفسه بالشدة وراضها رياضة عنيفة فى محاولة لقتل شهوات نفـ
واخراج الدنيا من قلبه ورغم انه يشكو حبها كما يقول « لااكتمـ
مولاى ما انت به عليم ــ ان أسفى على الدنيا طويل . أحب الدنيا
كأنها تحبنى والغريزة عن الرشد تذبنى . « احب الدنيا وآلتها ليسـ
فى وقد يئست من بلوغها واليأس مريح فالام التشوق والضلال » ر
انه يشكو حبها فقد انتصر وقهرها فى نفسه واستطاع ان يغوص
اعماق بحارها ليستخرج لؤلؤ الحكمة التى تجلت فى شعره ونثره ـ
السواء . يتحدث الدكتور طه حسين عن شعره فيقول « ليس لدينـ
من شعر أبى العلاء الا ثلاثة دواوين : أولها سقط الزند والمشهور
يشتمل على شعره أيام الشباب وان كان ذلك موضع بحث فانا نـ
فيه قصائد نظمت فى بغداد وبعد رجوعه الى المعرة بل نجد قصيدة نظـ
سنة اربع عشرة واربعمائة وهى الطائية التى بعثها الى خازن دار الـ
ببغداد ويحسم طه حسين هذه القضية بقوله : فلا شك فى أن
العلاء انما لاحظ أن شعر الشباب فى سقط الزند أكثر من شـ
الكهولة والشيخوخة فحكم عليه هذا الحكم ولعل الكتاب قد جمع بـ
رجوع أبى العلاء من بغداد ثم زيد عليه ماجد من الشعر . والثا
الدرعيات وهو ديوان صغير يشتمل على اشعار وصفت فيها الدر
خاصة اما الديوان الثالث فهو اللزوميات وهى اكبر الدواوين واجلهـ
خطرا نظمت كلها فى الطور الثالث فمثلت حياة عقله ووجدانه وخلقـ

احسن تمثيل «ولأبى العلاء مؤلفات نثرية لعل اشهرها رسالة الغفران ويحظى أبو العلاء المعرى باهتمام شديد تجاوز النطاق الاقليمى العربى الى المجالات العالمية فقد اهتم به المستشرقون اهتماما كبيرا وذلك نظرا لما فى أدبه من نظرة فلسفية عميقة للكون والحياة . ولقد اتهم ابو العلاء فى عقيدته ولكن المدافعين عنه وجدوا أدبه أقوى الحجج على ايمانه واذا كانت صعوبات حياته وفساد عصره قد قاده الى رأى قاس فى الناس والاشياء فان هذه الصعوبات نفسها كانت مدخل روحه الى رياض الحكمة والشعر بحيث عاد الينا من رحلة حياته القاسية بهذا التراث الضخم من الشعر والنثر الذى يضاهى بفخر ارفع ما كتب فى ادب اى امة على الارض هذا ابو العلاء المعرى . اما قصيدته فهى واحدة من اروع المراثى التى كتبت فى الشعر العربى فى كل عصوره. فى هذه القصيدة القوية البناء والجزلة العبارة نعثر على كنز غنى فياض بالحكمة واذا كانت المراثى تكتب للتفجع ونثر فضائل المتوفى فان لابى العلاء المعرى منهجا متميزا . فهو لا يغفل الاضاءة الاخلاقية للفقيد ولا يهمل تصوير لوعة الحزن عليه ولكنه يجمع الى ذلك كله قدرة خارقة على النفاذ من الخاص الى العام. على تجاوز الحزن الاصغر الى الحزن الاكبر يملك ان يرى الكليات الشاملة فى الجزئيات العابرة وهذا دور الشاعر الحقيقى . الذى يرى فى التجربة الذاتية معبرا الى التجربة الجماعية . هذه القصيدة قالها أبو العلاء المعرى فى رثاء ابن جعفر بن على بن المهذب . واذا نظرنا اليها نظرة شاملة وجدناها فى تدبر امر الحياه والموت تدبرا يشفى النفس من همها الثقيل ولهفتها وغيرتها والتفجع عليها . هى قصيدة فى السلو عن الدنيا والعزاء والتطهر : تبدأ بدفع الحزن عن النفس لتقودنا الى الحزن الاكبر وكأنه يرى الدنيا مسرحا للأحزان ومن ثم لا تستحق كل هذا التفجع . وعلى المرء فيها الا يستسلم لمواجعة وأرزائه فان فعل واستسلم فسيقوده ذلك الى الانطفاء بدلا من التوهج والنشاط نجد الشاعر يبدأ القصيدة موصيا نفسه التى يبدو أنه يدير معها حوارا خفيا « منلوج » يوصى الشاعر بالصبر حتى تمتلىء النفس بالقوة لاحتمال الحياة وما تأتى به الايام . فهو يرى ان الاسى يستنفذ الطاقة حتى يكون جهد الحزن ضائعا كله فى البكاء وحتى لا يكون قادرا على غيره وكان الشاعر يرى فى البكاء شيئا تافها سهلا اذا واجه به المرء الرزايا انما يطلب الشاعر للمرء جلدا وقوة وصبرا يستعين بها على بلاء الايام . ولكن الشاعر يضعف ويأمر مرة اخرى بالبكاء لان جعفر لا نظير له . ويميل الى بيان فضل المرثى شأن التقليدين من الشعراء الذين يلحون على اظهار فضائل الفقيد وتوشك الابيات ان تهبط الى المألوف من المعانى لانها جنحت الى المألوف من الاغراض . فهو يشير الى تفوق جعفر على اقرانه ويقيم الاتيسة الفنية على مقارناته التى قد تتوسل بالمنطق والحجة العقلية والتلاعب الذى يظهر تمكنه الشديد وقدرته فى سبك جمله فى يسر وبراعة .

ليس الذى يبكى على وصاله   مثل الذى يبكى على صده

ويستمر فى الاستدلال على المعنى فى البيت الذى يليه موضحا أن العين ترتاح لما يريحها وتتعب مما يتعبها . فليس حب جعفر بعجيب وهو الذى يريح النفوس وتتمنى هذه النفوس قربة منها . ويبدو الشاعر وكأنه يعتذر عن طلب السلوان والتوصية به فهو يشير الى أن هذا الحزن كان سيغدو فرضا لازما لو انه كان فداء نافعا للفقيد وبخلنا به عليه . ولكنه نجم صاعد الى مكانه الحقيقى وها هو الذى كان قريبا منا صار بعيدا كأنه الكوكب فى بعده الشاسع . ان الشاعر لا يقف عند صفات هذا الفقيد العزيز لأنها كما يبدو مستقرة فى نفس من يعرفه وهى واضحة ظاهرة لا تحتاج الى تذكير بها ولا يحتاج الشاعر فى هذا المقام العصيب الا لمغالبة الحزن وفهم ظاهرة الموت فى ضوء ظاهرة الحياة وها هو يلتمس المدخل الى جوهر القضية . انه الدهر . هذا العدو الغامض للحياة والاحياء وهو يخاطبه معاتبا لاصقا به صفة العداء فهو ينجز الوعيد ويخلف الوعد . وها هو يجرد منه كائنا عاتيا قاسيا لا يغلبه أحد ولاند له يستعصى على الموت . فهو يأسر العقبان تلك الطيور القوية الماهرة التى تجيد التحليق فى الآفاق العالية ومع ذلك فالدهر يأسرها من آفاقها كما يأتى بالوعل الشارد من جبله العالى . الشاعر يصف الدهر بالعدوانية فهو سريع الاذى ومخلف للظنون التى تأمل الخيرمنه وهو قوى باطش لا يفلت منه محلق فى الفضاء ولا هارب فى اعلى الجبال وهو كذلك لا يميز بين الخبيث والطيب فهو يسلكهم فى خيط واحد ليداهمهم سيله الطامى الذى يعلو مده فيطوى الاخيار والاشرار هل الدهر هنا يعنى الزمان كما نفهم من مدلول الكلمة اللغوى ام أن الدهر قوة ذات ارادة . ان ملامح هذا الدهر الذى يجرد منه الشاعر كائنا غامضا يلتبس مع الموت فى صورة تكاد تكون متشابهة والشاعر بعد ان وجه الاتهام قاسيا لهذا الدهر يولى وجهه شطر الحياة والاحياء ليقدم لنا جواهر الحكمة الشعرية التى يبدو أن الحديث الأليم قد فجرها فى نفسه . ها هو الشاعر يتجه الى نوع من النصح بالاستقامة وكأنه ينظر فى هذه اللحظة الى ختام الحياة فيرى أن الرشد اجدر بها من الغى ما دامت تنتهى بالموت والشاعر لا يفعل ذلك بطريقة مباشرة فجة فيقع فى الوعظ الذى يقدر عليه صغار الشعراء وانما يرتفع ليرسم صورة اخلاقية ذات دلالة ومغزى فى مثل هذا المقام . انه يحاول أن يحث العابث اللاهى على الاستقامة واعمال عقله فى مايرى فى هذه الدنيا وهو موشك ان يعاقبه على هذا الغى ثم يلقى بهذه الحكمة التى اعتصرها من صميم خبراته بالحياة ومن غمار احداثها .

تجربة الدنيا وافعالها   حثت أخا الزهد على زهده

ثم هو بعد ذلك ينتقل الى تصوير الاهواء التى تستولى على النفس فتجعل القلب عابدا لها وكأنها صنم من الاصنام . يلح الشاعر فى تصويره للزمان على استحضار صورة الموت :

ان زمانـــــي بـــــرزاياه لـــــي صـــــيرني أمـــــرح في قـــــده
كأننـــــا في كفـــــه مـــــاله ينفـــق ما يختـــار من نقـــده

يجردنا ابو العـــلاء في هذا البيت من كل ارادة أمام الزمان الذى اضافه الى نفسه ثم لجـــأ الى التعميم وذلك لانه حين تحـــدث عن الرزيا كان يعرف ان حياته ليست مثل حيـــاة الاخرين فقد يكون نصيبه منها اعظم واكبر اما حين يتحدث عن غلبة الموت فهنا يستوى الجميـــع ولا ارادة لحى . ثم يخلص من هذه التأملات الحزينة الى بيت يوشك ان يرتفع بالقصيدة كلها لو لم يكن فيها بيت اخر في مستواه .

لو عرف الانســـان مقـــداره لم يفخـــر المولى على عبده

هذا جوهر المساواة الانسانية فنحن امام الموت مجردين من الارداة سجناء في أجسادنا التى يستوى فيها العبد وسيده ويلجأ ابو العلاء بعد ذلك للحديث عن عجز الانسان هذا العجز الذى يجعل منه الشاعر وسيلة لاقتناعنا بالحقائق القاسية في هذا الوجود فمن ذا الذى لا يصمت مفحما امام هذا التحدى :

أمس الذى مـــر على قربـــه يعجـــز اهـــل الارض عن رده

ثم يستمر ابو العلا في تتبع صور المساواة امام الموت هذا القاهر الغلاب فالشيخ الذى مكث طويلا في الارض حتى بلغ ارذل العمر سواء هو والطفـــل الذى عوجل وهو في المهـــد . والميت الذى عبر الى قبره لا يبـــالى بالذم ولا بالمدح والواحد كالحشد الكثير هذه صـــور متعددة للمساواة مســـاواة الواحد بالجميع ومســـاواة من يبـــكى على آبائه بمن يبكى على ابنائه فجوهر الفقد واحد ويذكرنا هذا البيت بنظيره في التراث العربى .

وقالت اتبكى كل قبـــر رايتـــه لقبر ثـــوى بين اللـــوى فالدكادك
فقلت لها ان الشجا يبعث الشجا دعينى فهـــذا كـــله قبر مـــالك

ولا يحاول الشاعر أن يخرجنا من الدنيا دون أن يشـــير الى هذا الجانب المبضىء الذى يجعل الموت اضاءة للحياة والنهاية شحذا للبداية فهو يعود مرة اخرى الى الحديث عن قيمة الاعمال ألطيبة في الحيـــاة حيث يحث الانسان على اكتساب الافعال الخيرة هذه الافعال التى تدفع اليها السجايا الحسنة والاخلاق الكريمة ولكن الشاعر يقطع استرساله ليتحدث مرة اخرى عن طبيعة الحياة . وكيف يسعد الانسان حين يدعى له بطول العمر وليس في الطول غير الالام التى يتجرعها . وكيف ينجو الانسان من مصيره وأفضل ما فيه يغتاله وداؤه دواؤه .

فآفـــة العاشـــق من طرفـــه وآفـــة الصـــارم من حـــده

والشاعر يذكرنا بعمر الخيام في هذه الابيات .

كم صـــــائن عن قبله حـــــده   ســــلطت الارض على خـــــده
وحـــامل ثقـــل الثرى جيـــــده   وكان يشـــكو الثقل من عقـــده
ورب ظمـــــآن الى مـــــورد   والموت لـــــو يعلـــم فى ورده

ويتحدث أبو العلاء عن الفرسان الذين يتسمون بالمهارة فى الحرب ولكن هذه المهارة لا تجديهم شيئا . ويختتم قصيدته بمثل مابدأ بها انه يدرك ان الحزن مجرد ضياع للجهد والوقت والعمر فنصـــــح بالصبر والتسليم لله .

ســــلم الى الله فــكل الذى   ســـــاءك او سرك من عنـــده

ولا ينسى بالطبع أن يشير الى الرحمة التى تؤنس الفقيد داعيا الله بأن لا تقفر داره . هذه القصيدة التى تستولى الحكمة على معظـــم أبياتها تعطينا صورة لهذا التفكير القاتم الذى كان يظلل قلب وعقل — أبى العلاء ولكن هذا التفكير ليس متجهـــا هذا الاتجـــاه العدمى رغم تسليمه بالعجز فى مواجهة الموت بل هو ينادى بالحياة الصحيحة السليمة العامرة بالقيم والاعتماد على النفس والاهتداء بالعقل . ان صورة الموت فى هذه القصيدة غالبة دون شك ولكنها مدخل للحياة ورفض للحزن الذى يقعد النفس عن طلب المعالى . واذا كان الشاعر يحاصرنا بصورة العجز فلكى يوطن النفس على احتمال المكاره وعلى بعث القيم النبيلة فى الحياة مثل المساواة والحرص على الفضيلة وفيها كذلك دفع للاتهام الذى كان يوجه الى أبى العلاء فى أمر عقيدته . وكما أن هذه القصيدة يمكن أن توصف بأنها عن الموت فهى كذلك قصيدة باهرة عن الحياة .

لقد أنصبتنى أم قيس

من شعر كعب بن سعد الغنوى

لقـــد أنصبتنى ام قيس تلومنى ... وما لوم مثلى باطـلا بجميــل

تقول الا يا استبق نفسـك لا تكن ... تساق لغبراء المقـــام دحـــول

كملقى عظام او كمهلك ســـالم ... ولست لميت هـــالك بوصـيل

اراك امرا اترمى بنفســك عامدا ... مرامى تغتـــال الرجال بغــول

ومن لا يزل يزجـــى بغيب ايابه ... يجوب ويغشى هول كل ســـبيل

على قلت يوشك ردى أن يصيبه ... الى غير ادنى موضـــع لمقيــل

الم تعلمى ان لا يراخـــى منيتى ... قعـــودى ولا يدنى الوفاة رحيلى

مـع القدر الموقوف حتى يصيبنى ... حمامى لو أن النفس غير عجـول

فانك والموت الذى تر هبينـــه ... على ومـــا عذالة بغفـــول

كذاعى هديل لايجاب اذا دعـــا ... ولا هو يسلو عن دعـــاء هديل

وذى ندب دامى الأظل قســمته ... محافظـــة بينى وبين زميلـــى

وزاد رفعت الكف عنه عفـــافة ... لأوثـــر فى زادى على اكيلـــى

وشخص درأت النمس عنه براحتى ... لا نظر قبـل الليـــل أين نزولى

ومنشق اعطـــاف القميص دعوته ... وقد سد جوز الليل كل ســـبيل

فقلت له : قد طال نومك فارتحل ... وما ذاق طعم النوم غير قليـــل

سحيرا واعجاز النجوم كأنهـــا ... فســاطيط ركب بالفـــلاه نزول

ومن لا ينل حتى يســـد خلاله ... يجد شـــهوات النفس غير قليل

وعوراء قد قيلت فلم استمع لهـــا ... وما الكلمة العوراء لى بقبـــول

وما انا للشىء الذى ليس نافعى ... ويغضب منى صـاحبى بقـــؤول

وأعرض عن مولاى لوشئت سبنى ... وما كل يوم حلمـــه باصـــيل

ولن يلبث الجهـــال ان يتهضموا ... أخا الحلم مالم يستعن بجهـــول

واذكر أيام العشـــيرة بعد مـــا ... أميـل غيظ الصـدر كل ميـــل

ولست بمبد للرجـــال سريرتى ... ومـــا انا عن أسرارهم بسؤول

وقوم يجرون الثيـــاب كأنهـم ... نشـــاوى وقد نبهتهم لرحيـــل

وقد نفر الليل النهـــار والبســـت ... ســماوة جون مجنح لأصـــيل

شاعر هذه القصيدة ليس واحدا من اعلام الشعراء الذين سارت بذكرهم الركبان واحتفـــل بهم النقاد وروت لهم كتب الادب الروايات عن حياتهم وشعرهم وانما هو شاعر فرض اسمه على الكتب المتخصصـة فى تمحيص الشعر العربى مثل بلوغ الارب والســـمط والاغانى والخزانة .

انه كعب بن سعد الغنوى احد بنى سالم بن عبيد بن سعد بن كعب ينتهى نسبه الى قيس بن عيلان وبعض الكتب ترفع نسبه الى الجد الاخـــير وبعضها يوجز فى ايراد أسماء الاجداد وكعب هذا اغلب عليه لقب كعب الامثال « لكثرة ما فى شعره من الامثال وفى الامالى انه شاعرا اسلامى عاش

وأبدع شعره فى العصر الاموى وهذا ما يؤكده الطابع العام لهذه القصيده.
التى تكاد تنتمى بقيمها الفنية والموضوعية الى العصر الجاهلى .
ولما كان العصر الاموى انما هو رجعة فنية كبيرة الى الصورة الفنية التى كان عليها الشعر الجاهلى فان هذه القصيدة لا تصبح غريبة فى عصرها الذى قيلت فيه وقد وردت هذه القصيدة فى مختارات ابن سعيد عبد الملك »
ابن قريب بن عبد الملك المعروف بالاصمعى وهى المختارات التى تحمل اسم الاصمعيات نسبة الى جامعها والنظرة الشاملة بعد القراءة المتعمقة»
للقصيدة تلحظ عناصر الاتجاهات الفكرية والفنية والفلسفية الاساسية التى ازدهرت فى الشعر الجاهلى وحاول الشعر الاموى الارتداد اليها باسلوب يستوعب خبرة التجربة الاسلامية الكبيرة التى غيرت النطاق الفكرى الذى كان سائدا كما خلقت معايير جديدة فى مجال الاخلاق والعلاقات الانسانية وبناء المجتمع ذاته . فالاطار العام لقصيدة كعب بن سعد الغنوى يمت للشعر الجاهلى بنسب اصيل يظهر جليا فى هذه الانفاس التى تعيد الينا الاتجاه الى الحكمة الذى برز فيه وأقام اسسه الاولى زهير بن ابى سلمى : فالحكمة كمفهوم انسانى يمتص خبرة عصر باكمله تنتشر فى هذه القصيدة الرائعة كما تعطى القصيدة كذلك ايحاء قويا بصلتها المباشرة بهذا العالم الذى يحفل بالمغامرة والمخاطرة عالم الصعاليك الفسيح الذى يحفه الغبار وتكمن فيه الاخطار . عالم يصبح فيه التخلى عن الاحساس بالأمن هو أعظم الضمانات للأمن .

يذكرنا بمخاطرة عروة بن الورد حين يقول :

ومن يك مثلى ذا عيال ومقترا   من المال يطرح نفسه كل مطرح

ولكن المخاطرة هنا فى هذه القصيدة ربما كانت من نوع اكثر ترفا من مخاطرة الصعاليك الذين دفعهم نبذ المجتمع لهم الى ركوب الاخطار واصطناع الاسفار والغزوات . انها مخاطرة الهدف منها الحفاظ على كبرياء الشاعر مخاطرة لاعلاء شأن الذات وليس لدفعها درجات فى سلم الحياة الاجتماعية . وتبرز فى القصيدة هذه القدرية الحتمية التى كان شعر طرفه بن العبد رائدا فى تصويرها حين يقول :

الا ايهذا الزاجرى احضر الوغى   وان اشهد اللذات هل انت مخلدى
أرى الموت أعداد النفوس ولا ارى   بعيدا غدا ما أقرب اليوم من غد

هذه الحتمية التى جعلت من الحياة اختيار قاسيا بين اعدام الذات فى اخضاعها التام للعرف والمواضعات والحتمية وبين اغتنام الحياة فوق لهب التمرد وتحت سياط الاحتجاج الاجتماعى واستنكاره وليس ثمة شك فى ان القصيدة « لقد انصبتى ام قيس » تنفرد بتصوير تجربة اخرى بالغة التفرد والذاتية وهى لا تلتقى مع تجارب الصعاليك أو زهير بن ابن سلمى او طرفة بن العبد الا لتفترق وهنا عظمة اى شاعر اصيل . ان الشاعر الحقيقى هو حفيد أسلافه فهو يذكرك باجداده الشعراء فى الوقت الذى يعتز بوجهه هو وموهبته الذاتية التى تميزه عنهم . وهكذا نرى صورة

جلية لنمط الصياغة الجاهلية وعصر بنى امية يذكرنا بزهير وطرفة وغيرهم ولكن الذى يبقى هو صدق انفاس بن سعد الغنوى فى هذه القصيدة الحارة الصادقة التى تضرب بجذورها الفنية والفكرية والاخلاقية فى تراث القصيدة العربيه . وقد اختار الشاعر للقصيدة بحر الطويل فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن ليعبر من خلاله عن هذه الموجات المشحونة بالتوتر والتأمل والحركة . انه بحر واسع الاطراف هادىء كالصحراء متموج بطىء الايقاع يعطى للشاعر فرصة حامية للتفكير والتأمل . وهو بحر شاع استعماله فى العصر الجاهلى . فهو فخم جليل ولكنه لا يترفع عن الحركة والتدافع اذا فاضت بالشاعر هواجسه ، وتبدا القصيده بظهور « أم قيس » لائمة عاتبة محذرة للشاعر ومنذرة بالأذى الذى يمكن أن يلحق الشاعر من جراء تمسكه بفضائله كفارس شجاع فمن هى ام قيس هذه ؟ انها امراة كثيرة الظهور فى القصائد الجاهلية والاموية ولكن باسماء مختلفة وهى قد تكون زوجة الشاعر المحبة له الخائفة عليه وقد تكون جزاء من هذا التقليد الفنى الذى تفتتح به القصائد . فكما اننا نعثر دائما فى الشعر الجاهلى وغيره على هذا الخليل الذى يحرص الشاعر على اصطحابه فى كل رحلاته فاننا نجد كذلك امراة مختلفة الاسماء والاوضاع والمسافة من الشاعر ولكنها فى معظم الاحيان امراة عاتبة مشفقة على الشاعر مما يجلبه على نفسه ، انها مرة تكون أميمة التى يخاطبها ابو ذئيب الهذلى حين يقول :

قالت اميمة مالجسمك شاحبا منذ ابتذلت ومثل مالك ينفع

وقد تكون زوجة مشفقة كزوجة عروة بن الورد التى تحذره من المخاطرة بنفسه طلبا للغنى فيرد عليها :

دعينى للغنى اسعى فانى رأيت الناس شرهم الفقير

وقد نجدها من الجانب المناوىء كما فى قصيدة السموؤال بن عادياء حين يقول :

تعيرنى أنا قليل عديدنا فقلت لها ان الكرام قليل

فأم قيس اذن فى قصيدة كعب بن سعد الغنوى قد تكون زوجة او أما أو صديقه أو اختراعا فنيا يجرى به على سنة القصيدة العربية التقليدية وقد تكون تجريدا من نفسه لهذه الشخصية الخيالية اراد بها توجيهالسؤال الى نفسه واللوم لها على استهانته بالمخاطر التى يعرض نفسه لها . ويبدو ان أم قيس هى امراة حقيقية وهذا واضح من قوله «لقد انصبتنى» فالافتتاح بلقد يفيد التحقيق وانصبته اتعبته لانها اكثرت من لومه وعتابه وتحذيره ويبدو أنها استخدمت كل ما تستخدمه الانثى المحبة من وسائل الضغط لتمنعه من مواصلة مغامراته . وكان من الممكن أن يبدأ الشاعر قصيدته بلومها مباشرة من خلال ندائها له ان يرحم نفسه أو يجنبها

المخاطر ولكنه آثر أن يفتتح القصيدة بالاعلان عن تعبه وضيقه من هذا اللوم الشديد على نفسه . وهو يعتبر هذا اللوم مجافيا للصواب والحق . لا لانه وديع يؤثر السلامة فيكون اللوم فى غير موضعه بل لان لوم مثله يعد باطلا فمثله لا يلام لأنه لا يرتكب جرما اذا كانت مخاطراته من اجل اكتساب الشرف والذود عن الاهل والعرض . انه يستنكر هذا اللوم لانه لا يليق بمثله فهذا اللوم ليس جميــلا وقد آثران يترفق بهذه المرأة التى يعرف جيدا ان لومها يأتى من اشفاقها عليه ومحبتها فانتقى وصفا مخففا لهذا اللوم الذى أعلن هو انه قد أتعبه فقال بأن هذا اللوم غير جميل وكان يمكن ان يستخدم لفظا اكثر غلظة لولا ان العلاقة التى تربطــــه باللائمة علاقة حميمة وهدفها منه هو المحافظة عليه هو اذن قد اعلن فى هذا البيت تقريبا عن تقرير موقف ام قيس منه واحساسه وتقديره لهذه الموقف ووقعه عليه ثم اكد موقفه من هذا اللوم وحكمه عليه . فكأنه فى الواقع قد لخص فى بيت واحد القصيدة كلها : وقوع اللوم — ورده عليه مع التركيز على التأثير وابراز شخصيته فهو بيت جامع او هوبيتالقصيدة ومعجز'ته أنه فى كلمات قليلة قد قال كل شىء تقريبا بعد هذا البيت الذى يبدو ان الشاعر قد اراد به التنفيس عن نفسه ندخل الى صميم العتاب الذى وجهته ام قيس الى الشاعر . وهو يبدأ بهذا النداء :

تقول ألا يا استبق نفسك لا تكن　　　تساق لغبراء المقام دحول

وحذف المنادى فى هذا البيت يؤكد امتلاء نفس وقلب هذه المرأة بهذا الشاعر المغامر فهى غير محتاجة الى ان تشير اليه او تعلن اسمه فهى تحس به ملء كيانها وكأنها تتعجل هذا الراحل المخاطر تريد ان تمنعه مما هو ذاهب اليه فكأن الحذف هنا لاختصار الزمن والذى تريده هو انتسرع بالنصح والعتاب لعله ان ينزجر فيقلع ما يهمها الان هو الهدف وعليها ان تصل اليه فى اسرع زمن ممكن وقولها تساق لغبراء المقام دحول : كناية عن القبر . وهى تتعمد هذا التصوير القبيح للقبر حيث شــــبهته بالبئر المغيره التى تآكلت جوانبها وصارت لها فجوات كالكهف وهو مشـــــهد موحش مخيف تريد من وراء تصويرها هذا أن تردع شاعرها وقولهـــــا « تســـاق » يكشف عن ايمانها بحتميـــة الموت وان كان هذا التعبير : لا تكن تساق مركب من الارادة ومن الاجبار فهى تنهاه عن الســــير الى حتمية مصيره . هى تريد فى الواقع ان توضح ان الموت حتمية يساق له المرء سوقا وهذه طبيعـــة الموت الغلابة ولكنها فى نفس الوقت تؤكد أن شاعرها يلعب دورا لا اراديا فى السير الى حتفه ومن هنا فهى تنهـــــاه وتزجره بعد أن تجسد أمامه صورة القبر تجسيدا مخيفا مفزعا تنتقل الى تصويره هو بعد الموت كما مهملا لا قيمـــة له . بعد ذلك تأخذهـــا عليه الشفقة فتدعو له بالنجاة من هذا المصير القاسى . ثم تستمر فى توجيه الخطاب والعتاب فهو يرمى بنفسه عامدا الى حيث الاقدار القاسية التى تغتال الرجال . وهى تعترف ان حياة المرء مشرفة دائما على الهــــلاك يوشك الموت ان يصيب الانسان فيبعث به الى مكان بعيد ويستخدم كلمة مقيل للعالم الاخر كأنه مكان الراحة يصـــــل اليه الانســـان بعد الموت

وبعد هذا العتاب المشفق الذى يستخدم الحنوتارة والتخويف تارة تدخل القصيدة الى افق جديد وهنا تتبدى لنا شمس الحقيقة الساطعة وسط ظلام الحيرة والشكوك المريرة . يصدر الشاعر حكمه الصارم بعد ان اختبر الحياة والموت . فيجىء هذا الحكم مليئا حتى الحافة بالمرارة التى تشرف بالمرء على يأس من كل شىء . ان القدر الذى أحكم خيوط المصير لا يجدى معه القعود أو الرحيل : ألم تعلمى أن لايراخى منيتى . قعودى ولا يدنى الوفاة رحيلى ويالها من دقة فى التعبير فهو هنا يقيم نوعا من المقابلة بين يراخى ويدنى وبين القعود والرحيل . فهو هنا يستخدم كلمة التراخى للتعبير عن الموت ان المساومة اذن ليست الا على قليل من الزمن وحتى هذا القليل ميئوس تماما من الحصول عليه عن طريق القعود او الرحيل . ولا شك ان نفور الشاعر من التخاذل وايثار السلامة قد وجد التعبير المثالى عنه فى كلمة القعود هذه الكلمة التى توحى بالتكاسل وضعف الهمة والسقوط . ثم يأتى هذا البيت الحاسم فى تقدير موقف هذا الفارس الشجاع الذى يخاطر وهو يعلم ان القدر ممسك بالخيوط كلها تماما كما يقول طرفة بن العبد .

لعمرك ان الموت ما اخطأ لكطول المرخى وثنياه باليد

الشاعر يعلن وقوفه مع القدر . ياله من تضامن يكشف عن جسارة الفارس كما يكشف فى نفس الوقت عن هذا التقبل الذى تخلقه البصيرة فى وجدان هؤلاء الذين وهبوا الحكمة وشجاعة النظر الثابت فى قلب الاشياء . وكأنه شديد الحماس لهذا القدر الموقوف عليه : اى قدره الخاص . قدره وحده انه يتضامن معه ويتبدى هذا جليا فى البدء بأحرف مع وكأنه حذف كلمة « أنا » لاهتمامه بالمعية اكثر من اهتمامه بتأكيد ذاته هو يعلن تضامنه مع قدره الخاص فى الحياة والموت حتى يصيبه الحمام ثم يوضح لها موقفها منه وهو موقف يرى أنه لا جدوى من ورائه لانه لن يغير من طباعه ولا من قدره ولا من ارادته . هو يقول لها انها متضامنة مع الموت ضده وان موقفها هذا عبث كهؤلاء الذين يدعون هديل — والهديل فرخ الحمام تزعم الاعراب انه فرخ كان على عهد نوح فمات ضيعة وعطشا فيقولون انه ليس من حمامة الا وهى تبكى عليه . ومن هنا سمى بكاء الحمام هديلا . وهذا تفسير اسطورى ولكن الشاعر استعار هذا الموقف الخيالى للتعبير عن استحالة اثنائه عن عزمه أو رجوعه عن فروسيته .

كداعى هديل لايجاب اذا دعا ولا هو يسلو عن دعاء هديل

وبعد هذا البيت تنتقل القصيدة الى مرحلة أخرى هى مرحلة اقرب الى الفخر منها الى الدفاع عن النفس فهو يعطى صورة لصفاته النادرة واخلاقه الرفيعة هذه الصفات التى تأتى الشجاعة فى مقدمتها ثم الحكمة وقبول الواقع ببصيرة نافذة . يتحدث الشاعر عن وفائه ومودته وعفته وكرمه .

وذى ندب دامى الا ظـــل قســمته ... محـــــافظة بينـــى وبين زميـــلى
وزاد رفعت الـــكف عنه عفـــافة ... لاوثــــر فى زادى على أكيــــلى
وشخص درات الشمس عنه براحتى ... لانظـــر قبـــل الليـــل اين نزولى

وكل هذه الصور انما ليؤكد بها الشاعر كرمه وايثاره لغيره وحرصه على أصدقائه فهو رجل يحمى الغريب ويأوى الطريد الى جانب هذه الصور البليغة . فهو يصور النجوم بقطيع بقر الوحش وهى تهبط من التلال .

ومنشـــق أعطاف القميص دعوته ... وقد ســـد جوز الليل كل ســـبيل
فقلت له قد طـــال نومك فارتحـــل ... وما ذاق طعم النوم غـــير قليـــل
سحيرا وأعجاز النجوم كأنهـــــا ... صـــوارا تـــدلى من ســـواء أميل

وبعد أن يعرض لنا الشاعر صورا من كرمه يبرهن على ان الكرم لا يكون من فضل المال ولا مما يبقى بعد الاكتفاء فالكريم يجود بما عنده ولو كان فى حاجة اليه . وهو هنا ينبه الى خدعة تلجأ اليها نفس البخيل حين يقول لنفسه لابد من سد حاجتى أولا قبل أن اعطى الآخرين فالذى ينتظر شبع النفس حتى يجود بماله سيجد أن حاجته لا تنقضى .

ومن لاينـــل حتى يســـد خـــلاله ... يجد شـــهوات النفس غير قليـــل

ثم يتابع الشاعر بعد ذلك عرض صفاته العـــالية فهو لا يقبل القبيح من الكلام بل انه يؤكد ترفعه حتى عن سماع هذه الكلمات القبيحة فهو لا يقبل مثل هذا القبح . وهذه عفة وترفع وكبرياء بل هو نموذج للكياسة والحذق والحرص على مودة الاخرين فهو لا يثرثر بما يغضب صاحبه . وهو يترفع عن الجهال فلا يترك نفسه يتردى الى جهالتهم فاذا صور علاقته بأهله وجدناه حريصا غاية الحرص على هذه العشيرة التى تملك عليه جوانب نفسه فهو لا ينسى أهله ابدا حتى لو اســـاؤا اليه بل يعمد الى التـــأمل والصبر والمفاضلة بين الاحتمالات .

واذكر ايام العشـــيرة بعد ما ... أميل غيـــظ الصدر كل مميـــل

وهو رجل حكيم لا يسرع بقطع الاسباب بينه وبين أهله او بينه وبين غيره من الناس رغم انه ليس غرا ساذجا فهو يعرف ايضا ان الناس ليسوا ملائكة وأن الحذر منهم شيمة العاقل اللبيب فهو لا يترك اسراره تسيل من شفتيه لأنه يعرف قيمة هذه الاسرار ولا يظهر أعماقه امام الاخرين خوفا من أن ينهشوا هذه الاعماق الدفينة .

ولست بمبد للرجـــال سريرتى ... وما انا عن اسرارهم بســـؤول

انه يحترم حقوق الاخرين كذلك فى الحفـــاظ على اسرارهم وسرائرهم . وهذه هى الفروسية والنبل . لا يبحث لاحد عن نقطة ضعف . انه يحمى

نفسه بشرف وكرامة وتدفعه فروسيته ونبله الى الاعتراف بنفس الحق للرجال الاخرين . وهذه صوره من صور الحرية والمساواة ثم يختتم الشاعر قصيدته بالحديث عن مخاطراته بنفسه واسفاره وما اجمل تعبيره .

وقد نفر الليل النهار والبست   سماوة جون مجنح لاصيل

هو يريد ان يقول ان الليل يغالب النهار ويدفعه الى الخروج من الكون فها هى الدنيا تلبس سماء اقرب الى لون المساء عند الاصيل . هذه القصيده الرائعة لكعب بن سعد الغنوى تعد دستورا راقيا لطراز من الرجال جديرين بخلقهم وصفاتهم ان يصنعوا عالما فاضلا . فالشاعر وهو يتحدث عن نفسه لا يسقط فى الفخر الذى ينفر النفس منه وانما هو رجل يتحدث فى لهجة أقرب الى تطهير الذات منها الى الاستعلاء فهو لا يذكر الا الصفات التي ينبغى أن تكون دستور الانسان المثالى لقد جمع الى الشجاعة الحكمة والى العفة الكرم والى احترام النفس احترام الاخرين والى الولاء للعشيرة الخبرة بالرجال ودخائلهم ولو انسان عن نفسه هذه الصفات لعددناه متفاخرا مباهيا مبالغا . ولكنك تخرج من أنقصيدة معجبا بهذه الصفات فضلا عن تجسدها فى الشاعر او عدم تجسدها وغير عابىء بصدقه او مبالغاته فالحقيقة ان الصياغة الرفيعة التى صيغت بها القصيدة تؤكد صدقها من ناحية وتؤكد بلاغتها النادرة من ناحية اخرى فهى موجزة شديدة التركيز . ولكنها تضم كنزا ثمينا من القيم الاخلاقية والانسانية والاجتماعية الرفيعة . واذا كان الشاعر قد بدأ بالشجاعة والتسليم للقدر فقد اعطانا المفاتيح الاساسية للشخصية السليمة . قوة القلب وقوة العقل . هذه قصيدة شاعر بدوى اسمه كعب بن سعد الغنوى ولكنها تقف بما تحفظه فى ابياتها من كنوز مع روائع الشعر فى كل العصور .

شاعر يرثى نفسه

مالك بن الريب التميمى

الا ليت شعرى هل أبيتن ليلة ... بجنب الغضى ازجى القلاص النواجيا
فليت الغضى لم يقطع الركب عرضه ... وليت الغضى ماشى الركاب لياليا
لقد كان فى أهل الغضى لودنا الغضى ... مزار ولكن الغضى ليس دانيا
الم ترنى بعت الضلالة بالهدى ... وأصبحت فى جيش ابن عفان غازيا
وأصبحت فى أرض الاعادى بعيد ما ... اراني عن أرض الاعادى قاصيا
دعانى الهوى من أهل أود وصحبى ... بذى الطبسن فالتفت ورائيا
اجبت الهوى لما دعانى بزفرة ... تقنعت منها ، أن الام ، ردائيا
أقول وقد حالت قرى الكرد دوننا ... جزى الله عمرا خير ماكان جازيا
ان الله يرجعنى من الغزو لا أرى ... وان قل مالى طالبا ما ورائيا
تقول ابنتى لما رأت طول رحلتى ... سفارك هذا تاركى لا أبا ليا
لعمرى ، لئن غالت خراسان هامتى ... لقد كنت عن بابى خراسان نائيا
فان أنج من بابى خراسان لا اعد ... اليها وان منيتمونى الامانيا
فلله درى ، يوم اترك دلائعا ... بنى بأعلى الرقمتين وماليا
ودر الظباء السانحات عشية ... يخبرن — انى هالك — من ورائيا
ودر كبيرى اللذين كلاهما ... على شفيق ناصح لو نهانيا
ودر الرجال الشاهدين تفتكى ... بأمرى الا يقصروا من وثاقيا
ودر الهوى من حيث يدعو صحابه ... ودر لجاجاتى ودر انتهائيا
تذكرت من يبكى على فلم اجد ... سوى السيف والرمح الردينى باكيا
وأشقر محبوك يجر لجامه ... الى الماء لم يترك له الماء ساقيا
ولكن بأكناف السمينة نسوة ... عزيز عليهن العشية مابيا
صريع على أيدى الرجال بقفرة ... يسوون لحدى حيث حم قضائيا
ولما تراءت عند مرو منيتى ... وخل بها جسمى وحانت وفاتيا
أقولى لاصحابى ارفعونى فانه ... يقر بعينى أن سهيل بداليا
فياصاحبى رحلى دنا الموت فانزلا ... برابية .. انى مقيم لياليا
أقيما على اليوم او بعض ليلة ... ولا تعجلانى قد تبين شانيا
وقوما اذا ما استل روحى فهيئا ... لى السدر والاكفان عند فنائيا
وخطا بأطراف الاسنة مضجعى ... وردا على عينى فضل ردائيا
ولا تحسد انى بارك الله فيكما ... من الارض ذات العرض ان توسعاليا
خذانى فجرانى ببردى اليكما ... فقد كنت قبل اليوم صعبا قياديا
وقد كنت عطافا اذا الخيل ادبرت ... سريعا الى الهيجا الى من دعانيا
وقد كنت صبارا على القرن فى الوغى ... وعن شتمى ابن العم والجار وانيا
فطورا ترانى فى ظلال ونعمة ... ويوما ترانى والعتاق ركابيا
ويوما ترانى فى رحى مستديرة ... تخرق أطراف الرماح ثيابيا
وقوما على بر السمينة اسمعا ... بها الغر والبيض الحسان الروانيا

بأنكمـــا خليتمـــــانى بقفــرة تهيل على الريح فيهــا السوافيا
ولا تنسيا عهدى خليلى بعد مـا تقطع أوصـــالى وتبلى عظاميـــا
غداة غد بالهف نفسى على غــد ولن يعــدم الميراث منى المواليـــا
يقولون لا تبعد وهـــم يدفنوننى وأين مـــكان البعد الا مكانيـــا
ولن يعدم الوالون شيئا يصيبهم اذا أدلجوا عنى وأصبحت ثاويا
واصـــبح مالـــى من طريف وتالد لغيرى وكان المال بالامس ماليـــا
فياليت شعرى هل تغيرت الرحى رحى المثل او امست بفلج كما هيا
اذا الحى حلوهـــا جميعا وانزلوا بها بقرا حـــم العيون ســـواجيا
وهل أترك العيس العبالى بالضحى بركبانهـــا تعلو المتان الديافيـــا
اذا عصـــب الركبـــان بين عنيزة وبولان عاجوا المبقيات النواجيـا
فياليت شعرى هل بكت أم مالك كما كنت لو عالوا بنعيك باكيـــا
اذا مت فاعتادى القبور فسلمى على الرمس أسقيت السحاب الغواديا
على جدث قد جرت الريح فوقه ترابا كسحق المرنبانى هابيـــا
رهينة احجـــــار وترب تضمنت قراراتها منى العظام البواليـــا
فيا صـــاحبى ، اما عرضت فبلغن بنى مازن والريب ان لا تلاقيـــا
وعطل قلوصى فى الركاب فانهــا ستفلق اكبادا وتبكى بواكيـــا
وابصرت نـــار المازنيات موهنـــا بعلياء يثنى دونها الطرف وانيـــا
بعيـــــد الـــدار نـــاو بقفـــــرة يد الدهر ، معروفا بأن لا تدانيـــا
اقلب طرفى حـــول رحلى فلا ارى به من عيون المؤنســـات مراعيـــا
وبالرمال منا نسوة لو شـــهدننى بكين وفدين الطبيـــب المداويـــا
وما كان عهد الرمل عندى واهله ذميما ولاودعت بالرمل قاليـــا
فمنهن أمـــى وابنتاهـــا وخـــالتى وباكيـــة اخرى تهيج البواكيـــا

* * *

شاعر هذه القصيدة الرائعة هو مالك بن الريب التميمى من شعراء الاسلام فى بداية العهد الأموى . واخباره القليلة والمتناثرة تؤكد انه كان شجاعا فاتكا وقاطع طريق على نهج صعاليك ذلك الزمان وهو يتحدث فى شعره عن شجاعته ومواقعه بل يعترف صراحة فى احاديثه انه قاطع طريق وكان له رفقة من اصحابه يسومون الناس شرا فطلبهم مروان بن الحكم وهو عامل على المدينة فهربوا وكتب الى الحارث بن حاطب الجمحى وهو عامله على بني عمر بن حنظلة يطلبهم فهربوا منه ولكن الحارث استطاعان يقبض على مالك بن الريب واصحابه وبينما يسوقهم جند الحارث استطاع مالك لخفة حركته وسرعته أن يفلت منهم ويقتلهم ويخلص رفاقه ثم هربوا الى البحرين ثم الى فارس وكان سعيد بن عثمان بن عفان واليافى ذلك الوقت على خراسان وقد بلغه ما يشيعه مالك بن الريب واصحابه من الفزع والرعب فى قلوب الناس فلقى مالك ورآه من أجمل الناس وجها وأحسنهم ثيابا فأعجب سعيدا فقال له : مالك ويحك تفسد نفسك بقطع الطريق وما يدعوك الى ما يبلغنى عنك من العبث والفساد وفيك هذا الفضل قـــال يدعونى اليه العجز عن المعالى ومساواة ذوى المروءات ومكافاة الاخوان قال فان انا اغنيتك واستصحبتك ، اتكف عما تفعل ؟ قال أى والله أيها

الامير اكف كفا لم يكف أحد احسن منه فاستصحبه واجرى له خمسمائة درهم فى كل شهر . ومن الواضح ان مالك بن الريب بالهيئة واللســــان الذين كان عليهما لا يجعلان منه مجرد قاطع طريق أو لص وانما هو فارس شجاع يرى ان ما هو متاح له من الاعمال لا يكافىء طموحه الى المعالى فراى فى قطع الطريق نوعا من الصراع الفردى ضد عالم لا يهمه منه الا أن يجد فيه حظا موفورا من الكبرياء وعلو الشأن ويبدو انه كان يشعر بأن هذا العمل يخالف سنة المجتمــع الذى نشأ فيه بل ويتنــافى مع الدين الذى ارتضاه والذى كان الايمان به واضحا فى شعره ومن هنا فانه قد انتهز الفرصة التى عرضت عليه لاظهار شجاعة حقيقية فى ميدان الجهــاد من شأنها أن تكسبه المعالى التى كان يتوق اليها وقد ارتاح لهذا الاختيـــار لانه يلائم روحه ومزاجه فهو اذن فارس ضل طريقة ثم اهتدى الى هذه الطريق فبادر الى انتهاجه وكتب الادب والأغانى خاصة تلتمس فى حياة مالك من الاحداث والقصص الغرامية التى تناسب المجتمــع الذى كان قائما فى العصر الذى وضع فيه كتاب الاغانى فهم يقولون ان سبب رحيل مالك بن الريب الى فارس حيث لقى سعيد بن عثمان بن عفان هو الخجل من الهزيمة فى الحب أمام توبة بة الحمــير فيروون أن مالك قد مر بليلى الأخيلية فجلس اليها يحادثها طويلا وانشدها فأقبلت عليه واعجبت به حتى طمع فى وصلها ، ثم اذا هو بفتى قد جاء اليها كأنه نصل سيف فجلس اليها فأعرضت عن مالك وتهاونت به واقبلت على صاحبها مليا من نهارها فغاظه ذلك من فعلها واقبل على الرجل فقال من انت قال توبة بن الحمير فقال هل لك فى المصارعة قال وما دعاك الى ذلك وانت ضيفنا وجارنا قال : لابد منه فظن أن ذلك لخوفه منه فازداد لجاجا فقــام توبة فصرعه فخجل وقال لا أقيم فى بلد العرب ابدا ويبدو أن القصة مفتعلة ومصنوعة لتسلية المجتمع العباسى . وحين هم مالك بن الريب بالذهاب مع سعيد ابن عثمان بن عفان تعلقت ابنته بثوبه وبكت وقالت له أخشى أن يطول سفرك أو يحول الموت بيننا فلا نلتقى فبكى وانشأ يقول :

ولقـــد قلت لأبنتى وهى تــكى بدخيل الهموم قلبــا كئيبـــا
وهى تذرى من الدموع على الخدين ـــن لوعـــة الفــراق غــروبا
عبرات يـــكدن يحرقن ماجــز ن به أويـــد عن فيـــه ندوبا
حذر الحتف أن يصيب اباهـــا ويلاقى فى غير اهـــل شعوبا
اســكنى قد حززت بالدمع قلبى طالمـــا حـــز دمعكن القلوبا
فســلى الله يدفـــع عنـــى ريب مـــا تحـــذرين حتى اؤوبا
ليس شىء يشـــاؤه ذو المعالى بعزيز عليه فادعى المجيبـــا
ودعـــى أن تقطعـــى الآن قلبى او تريـــن فى رحلتى تعذيبـــا
انا فى قبضة الاله اذا كنت بعيدا أو كنـــت منـــك قريبـــا
كم رأينا امــرأ اتى من بعيـــد ومقيمـــا على الفراش أصـــيبا
فدعينـــى من انتحـــابك انـــى لا أبـــالى اذا اعتزمت النحيبـــا
حسبى الله ثم قربت للســـير عـــلاوة انجب بهـــا مـــركوبا

ـــ ان هذه الأبيـــات القليلة تؤكد ايمـــان مالك بن الريب بالله فهو حسبه وكافية وهو فى قبضة الاله سواء فى قربه من ابنته أو بعده عنها فهو يؤكد لها انه شديد العزيمة لاتثنيه الدموع وفعلا رحل الشـــــاعر مع الأمير ســـعيد ويبدو أنه قد أتم مهمته العسكرية على أفضل وجه وخلال العودة من المعارك الى ديار أهلهفاجاءه المرضوربما كانقد أصيبفىمعركته تلك والرواة يذكرون المرض لا الأصابة فلما أشرف على الموت تخلف معه رجلان من قومه بنى تميم وكان ميلاد هذه القصيدة الشهيرة التى مات بعدها فى الموقعالذى ثقلت عليه فيه العلة ويروى الاصفهانى عن أبى عبيدة أن مالك بن الريب لم يقل من قصيدته الا ثلاثة عشر بيتا والباقى منحول ولده عليه الناس :

داب المؤرخون للادب والادباء على وصف قصيدة مالك بن الريب بأنها فى رثاء نفسه أو شاعر يرثى نفسه . ونحن نعرف أن الرثاء هو التفجع على الموتى وذكر مناقبهم أما اذا طالعنا هذه القصيدة نانا نرى فيها صورة درامية لموقف الشاعر من الموتبعد أن تأكد من حتمية مصيره الفاجع وهى بموضوعها تعبر عن الموقف النموذجى للتجربة الشعرية حيث يواجـــــه الشاعر المستحيل والمطلق معا فبين ارادة الحياة وحتمية الموت تنصهر كل عواطف الشاعر وأفكاره وتتفجر من هذا الوضع المأساوى صــــــور القصيدة التى تعبر فى صدق نادر عن حب طاغ للحياة ولا يكاد اسم الرثاء يصح وصفا لها وانما هى قصيدة « وداع للحياة » هذا الوداع القاسى ينطوى على الكثير من دلالات الوجود بما فيه من منطق ولا معقولية . بما فيه من سعادة وحزن . وتدور القصيدة بصـــورها وأفكارهـــا ودموعها ونشيج موسيقاها حولأركان ثلاثةهىصورة الوطنوفجيعةالاهلوالاشفاق على النفس من الموت وقف الشاعر وصاحباه عند مرو فى خراسان بعد أن ثقلت عليه العلة وأيقن من الموت . والمكان يستثير المكان . فكما أن الحاح صورة الموت قد فجرت صورةالحياة فانصورة المكانالبعيد الذىوجد نفسه فيه قد أظهرت صـــورة المـــكان ـــ الوطن ـــ القريب من النفس والقلب والوجدان ـــ يبدأ الشاعر القصيدة بتصوير وطنه السمينة ـــ حيث يكثر شجر الغضا فى هذا الوادى الذى يقترب من اليمن لانه يذكر سهيلا كمرشد اليه وسهيل نجم يطل من ناحية اليمن كما يقولون وعجيب ان يذكر الشاعر وطنه بشجر الغضا ـــ وهو شجر خشبه من أصلب الخشب وجمره يبقى مدة طويلة والشـــاعر يبدأ بمناجاته لمطابقة دلالة هذا الشـــجر لمعنيين يترددان فى نفس الشاعر هما معنى الحياة والشجر رمز جميل للحيـــاة ومعنى آخر هو دوام اتقاد الحسيرة فى نفسه على هذا الهلاك المبكر . وما أرق الشاعر وهو يتمنىأنيبيتليلة بجنبشجر الغضا اىيتمنىليلة فىوطنه يواصل حياته العادية وليت الغضى قد ساير الركب قليلا حتى لا تنقطع عنه صورة الوطن فقد كان شيئا محببا الى نفسه أن يزور هذا الوادى الطيب لو كان قريبا منه ولكنه ليس بالقريب الان ليزار . وبعد أن تلمع صورة الوطن فى ذاكرة تجاهد لتعرض أمام الشاعر آخر مشاهد الحياة

يقسو على نفسه باللوم والتقريع لانه تبع سعيد بن عثمان بن عفان فى هذه الرحلة التى أودت بحياته وغربته عن دياره لقد بدد ما لديه بعد أن ضل ضلالا شديدا وباع الهدى وأصبح مقاتلا فى هذا الجيش . والشاعر لا يحدثنا عن هذه الموقعة التى كان فيها ربما لانه يرى أن ما يواجهه أخطر من أن ينشغل بغيره . ويترك ذاكرته تنساق وراء الرجاء والتمنى وخيالات الأوهام التى يدرك هو أنها غير مجدية وكأنه يحاول التكفير عن ذنبه فيؤكد انه لو عاد الى أهله من هذا السفر فسوف لا يعود الى ذلك مرة آخرى . وبين مشاهد الوطن وتفزيع النفس والعزم والتمنى تلوح صورة ابنته التى تقول له ان سفرك هذا يتركنى بلا أب يرعانى . وكأن هذا الصوت هو الذى يغذى فى نفسه الاحساس بالذنب فيعزم على عدم العودة الى خراسان مرة آخرى — وكأنه يهجس لنفسه ما كان أبعدنى عن بابى خراسان فما الذى أتى بى الى هنا . وكما تتناثر صورة الوطن فى القصيدة كذلك تتناثر صورة الأهل . وهو يحدد أهله بأبيه وأمه وابنتيه وزوجته هؤلاء هم كل أسرته التى يحن اليها ويكاد يجن شوقا اليها . وهو يدعو لنفسه وأهله وقومه ونساء قومه ومشاعر الحب التى يدخرها لهم يدعو لكل ذلك وهؤلاء بالخير — وهم يثيرون فى نفسه بقوة صورة نفسه الوحيدة المغتربة وكما يطرح النقيض نقيضه فى القصيدة كلها فان صورة الجمع تطرح صورة المفرد وصورة الأهل تستدعى صورة الغربة .

تذكرت من يبكى على فلم أجد سوى السيف والرمح الردينى باكيا

— انه يشفق على نفسه اشفاقا رقيقا يتذكر معه صورة الوحشة التى التى هو عليها فليس ثمة من قريب منه يعرف ما هو عليه الاسيفه ورمحه وحصانه الاشقر القوى الذى يسعى الى الماء للشرب وحيدا بعد أن أخذ الموت ساقيه هؤلاء هم رفقته الذين يقهرهم بكاءهم عليه عند موته . ولا تفوتنا صورة الاشفاق على الجواد أيضا حيث يشير اليه بأنه لم يترك له الموت ساقيا.وكأن الشاعر قد نبه الى أن هذه الاشياء التى ينتظر منها الاشفاق عليه لا تحس ولا تعقل فيعود ليشير الى أن نسوة السمينة يعزا عليهن ما هو فيه — ويرسم الشاعر بعد ذلك بالحوار الدرامى مشهد الترقب المرير للموت وهو يطلب من أصحابه ان يرفعوه قليلا ليمتع عينيه بمشهد سهيل هذا النجم الذى يطلع من ناحية وطنه وأهله ويطلب اليه الاقامة معه قليلا فقد تبين أن الامر جد لاهزل فيه وأن الموت لا محالة نازل به وهو يوصيهما بأن يوسعا له فى القبر وتثير هذه المشاعر فى نفسه حيث يبدو عاجزا سهل القياد لا حول ولا قوة ولا ارادة صورة أخرى كما قلنا — صورة الرجل القوى الذى كان صعب القياد صبورا على نده فى الحرب. هنا يذكر شجاعته وسرعته الى ميدان القتال لنجدة من دعاه وبينما كان قويا على عدوه كا نهينا لينا مع أهله وجيرانه .

وقد كنت صبارا على القرن فى الوغى وعن شتمى ابن العم والجار وانيا
يتراخى فى الاساءة الى المقربين ويسرع فى الاذى للأعداء .

تمتد القصيدة لتنسج بالدموع والندم مشاعر الاشفاق على النفس. هذا الاشفاق الذى يلتمس المشاركة والاحساس بأن من تركهم خلفه سوف يعرفون خسارتهم فيه وهو واثق من مشاعر أهله تجاهه هذه المشاعر التى أنبتها وغذاها هو بأفعاله معهم فهو يوصى صاحبيه بأن يذهبا الى السمينة ويعلنا نعيه على الملأ واشارته الى النساء الجميلات تعكس ولعه بالجمال وأنه كان عاشقا للنساء فقد ورد ذكر هؤلاء الحسان مرارا فى القصيدة :

وقوما علىٰ بئر السمينة اسمعا بها الغر والبيض الحسان الروانيـــا
بأنكمــــا خلفتمـــــانى بقفــــرة تهيل على الريح فيهــــا السوافيا

يود الشاعر من كل قلبه وهو يموت ان يطمئن على ان مشاعر الحب والحنان تغمر قلوب أهله وعشيرته ومعجباته من النساء حزنا على وفاته فى الغربة وهو يتوسل بهذه الصور الاليمة للطريقة التى مات بها. ثم يستطرد الشاعر بعد ذلك فى هذا الاشفاق على النفس فنجده يرق ويصفو ويهفو الى المستحيل الحياة — وتمتد عباراته فى صيغة بالغة البساطة والعمق والصدق .

يقولون لاتبعدوهــــم يدفنـــونى وأين مكان البعد الا مكانيــا

واصـــبح مالى من طريف وتالد لغيرى ، وكان المـــال بالامس ماليا

أنه يتفجع على هذا المال الذى سوف يؤول لغيره وقد كان له من قبل ثم يعرض لصور الحياة فى قومه وكأنه يودع فيها هذه السعادة والراحة والطمأنينة والحب وهو يولى عن الدنيا ويتشبث مرة أخرى بهذا المعنى الذى يردده طوال القصيدة وهو الاطمئنان الى مشاعر الحب عند أهله وهل يضمرون له ما يستحقه فارس مثله من تقدير عظيم واعتزاز جدير بمكانته — هل تتغير شخصية الشاعر الشجاع فيفقد الثقة فى مكانته فى قلوب قومه فهو يطلبها دائما فى القصيدة. ام أنه يلتمس فى هذه المشاعر لونا من الحياة تكون عوضا عن الحياة الحقيقية التى يودعها الآن — أغلب الظن أن الشاعر يبحث وهو يرى فناء الحياة عن لون من الخلود . لون من المبقاء نوع من الوجود فى الخلف الباقى من أهله وعشيرته والمعجبات به. هل هو تشبث بالحياة حتى بعد فناء الحياة ونوع من التعلل بالاوهام .

فياليت شـــعرى . هل بكت ام مالك كما كنت لو عالوا بنعيك باكيـــا
اذا مت فاعتـــادى القبور فســلمى على الرمس أسقيت السحاب الغواديا

يعود الشاعر الى أحضـــان أمه فيوصيها بأن تذهب الى القبـــور تلتمس فيها ايناس الوحشة التى خلفها موته . والشاعر يعطى لعقله أحيانا فرصة للسيطرة على مشاعره حتى يصدع بالأمر الذى ليس منه بد فالحقيقة ساطعة والاوهام باطلة .

فيا صـــاحبى اما عرضـــت فبلغن   بنى مازن والريب ان لا تلاقيـــا

هذه هى الحقيقة وما سواها فهو باطل لا جدوى من التشبث به وما اجمل ختام القصيدة حيث يجمع الاهل والوطن والزمان الذى يضم الاثنين فى زفرة تجمع بين الحسرة والتمنى والتلظى بهذا الفراق الاخير .

وما كان عهد الرمـــل عندى واهله   ذميما ولا ودعت بالرمل قاليـــا

ينطوى البيت على الندم والحب العظيم لكل شىء فى وطنه انها نهاية توشك أن تكون عزاء فى نفس الوقت والقصيدة خالية من اللفظ الغريب والتركيب المتكلف والصورة المعقدة فهى صورة خالدة لمأساة الانسان ــ فى مواجهة الموت وهو انسان محب للحياة ولكل ما فيهـا وهو يضـطر للتسليم بالحقائق الأليمة فى الوجود هذه الحقائق التى يمثل الموت ذروة اليقين فيها جميعا .

القصيدة اليائية المسماه

« المؤنســـة »

لقيس بن الملوح – مجنون ليلى

تذكرت ليلى والسنين الخواليـا   وأيام لا نخشى على اللهو ناهيـا

ويوم كظـل الرمح قصرت ظـله   بليلى فلهانى ومـاكنت لا هيـا

بثمدين لاحت نار ليـلى وصحبتى   بذات الغضى تزجى المطى النواجيا

فقال بصير القوم الحت كوكبـا   بدا فى سـواد الليل فردا يمانيـا

فقلت له : بل نار ليـلى توقدت   بعليا تسامى ضوؤها فبداليـا

فليت ركاب القوم لم تقطع الغضي   وليت الغضى ماشى الركاب لياليا

فياليل كم من حاجة لى مهمـة   اذا جئتكم بالليل لم ادر ماهيـا

خليـلى ان لا تبـكيانى التمس   خليلا اذا انزفت دمعى بكى ليـا

فما أشرف الايقـاع الا صـبابة   ولا أنشـد الاشـعار الا تداويا

وقد يجمع الله الشتيتين بعد ما   يظنـان كل الظن أن لا تلاقيـا

لحى الله اقواما يقولون اننـا   وجدنا طوال الدهر للحب شافيا

وعهدى بليلى وهى ذات مؤصـد   نرد علينـا بالعشى المواشـيا

فشب بنو ليلى وشب بنو ابنهـا   واعلاق ليلى فى فؤادى كما هيـا

اذا ما جلسـنا مجلسا نستلذه   تواشـوا بنا حتى أمل مكانيـا

سـقى الله جارا لليلى تبـاعدت   بهن النوى حيث احتللن المطاليـا

ولم ينسنى ليلى افتقار ولا غنـى   ولا توبة حتى احتضنت السواريا

ولا نسوة صبغين كبداء جلعـدا   لتشبه ليلى ثم عرضـنها ليـا

خليـلى لا والله لا أمـلك الذى   قضى الله فى ليلى ولا ما قضى ليـا

قضاها لغيرى وابتلانى بحبهـا   فهلا بشىء غير ليـلى ابتلانيـا

وخبرتمانى أن تيمـاء منـزل   لليلى اذا ما الصيف القى المراسيا

فهذى شهور الصيف عنا قد انقضت   فما للنوى ترمى بليلى المراميـا

فلو أن واش باليمـامة داره   ودارى بأعلى حضرموت اهتدى ليا

وماذالهم لاأحسن الله حالهـم   من الحظ فى تصريم ليلى حباليـا

وقد كنت أعلو حب ليلى فلم يزل   بى النقض والابرام حتى علانيـا

فيارب سوى الحب بينى وبينهـا   يكون كفـافا لاعلى ولا ليـا

فما طلع النجم الذى يهتدى بـه   ولا الصبح الاهيجا ذكرها ليـا

ولا سرت ميلا من دمشـق ولا بدا   سهيل لاهل الشام الا بداليـا

ولا سميت عندى لها من سـمية   من الناس الا بل دمعى ردائيـا

ولا هبت الريح الجنوب لأرضـها   من الليـل الابت للريح حانيـا

فان تمنعوا ليلى وتحموا بلادهـا   على فلن تحموا على القوافيـا

فأشـهد عند الله انى احبهـا   فهذا لها عندى فما عندها ليـا

قضى الله بالمعروف منهـا لغيرنا   وبالشوق منى والغرام قضى ليـا

وان الذى أملــــت يا أم مـــالك ... اشاب فويدى واســتهام فؤاديا
أعد الليـــالى ليــلة بعد ليـــلة ... وقد عشت دهرا لا أعد اللياليــا
واخــرج من بين البيــوت لعلنى ... احدث عنك النفس بالليل خاليــا
اراني اذا صــليت يممت نحوهـــا ... بوجهى وان كان المصلى ورائيــا
وما بى اشـــراك ولكن حبهــــا ... وعظم الجوى أعيا الطبيب المداويا
أحب من الاسماء ما وافق اسمها ... أو اشبهه أو كان منه مدانيـــا
خليـــلى ليلى أكبر الحــاج والمنى ... فمن لى بليلى أو فمن ذا لها بيــا

لعمرى لقد ابكيتنى يا حمــــامة العقيــــق وابكيت العيون البواكيـــا

خليلى ما أرجو من العيش بعدما ... ارى حاجتى تشرى ولا تشنرىليا
وتجـــرم ليلى ثم تزعــم أننى ... سلوت ولا يخفى على الناسمابيا
فلــم أر مثلينـــا خليلى صـــبابة ... اشد على رغم الاعادى تصـــافيا
خليلان لا نرجو اللقـــاء ولا نرى ... خليلــــين الايرجوان تلاقيـــا
وانى لأستحييك أن تعرض المنـــى ... بوصلك او ان تعرضى فى المنى ليا
يقول أناس عل مجنـــون عامـــر ... يروم نســلوا قلت أنى لمابيــا
بى اليأس او داء الهيام اصـــابنى ... فاياك عنـــى لا يكن بك مابيـــا
اذا ما استطال الدهر يا أم مالك ... فشأن المنايا القاضيات وشـــانيا
اذا اكتحلت عينى بعينك لم تزل ... بخير وجلت غمرة عن فؤاديـــا
فأنتالتى ان شئت اشقيتعيشتى ... وانت التى ان شئت انعمت باليا
وانت التى مامن صديق ولا عـــدا ... يرى نضوما ابقيت الا رثى ليـــا
أمضروبة ليلى على أن ازورهـــا ... ومتخذ ذنبا لهــــا أن ترانيـــا
اذا سرتفى الارضالفضاء رايتنى ... اصانع رحلى أن يميل حياليـــا
يمينـــا اذا كانت يمينـــا وان تكن ... شمالا ينازعنى الهوى عن شماليا
وانى لاستغشى وما بى نعســــة ... لعل خيالا منــك يلقى خياليـــا
هى السحر الا أن للسحر رقيــة ... وانى لا الفى لها الدهر راقيـــا
اذا نحن أدلجنا وأنت أمامنـــا ... كفـــا لمطايانا بذكراك هاديـــا
ذكتنار شوقىفىفؤادى فأصبحت ... لها وهـــج مستضرم فى فؤاديـــا
ألا أيها الركب اليمانون عرجـــوا ... علينـــا فقد امس هو انا يمانيـــا
أسائلكم هل سال نعمـــان بعدنا ... وحب الينا بطن نعمــــان واديا
الا ياحمامى بطن نعمـــان هجتما ... على الهوى لمـــا تغنيتمـــا ليـــا
وابكيتمانى وسط صحبى ولم اكن ... ابالى دموع العين لو كنت خاليـــا
ويا ايهـــا القمر يتـــان تجاويـــا ... بلجنيكما ثم اســـجعا علانيـــــ
فان انتما اســــتطربتما او اردتم ... لحاقا بأطلال الغضى فاتبعانيـــا
الا ليت شعرى ما لليلى وما ليـــا ... وما للصبا من بعد شيب علانيـــا
الا أيها الواشى بليـــلى الا ترى ... الى من تشيها أو بمن جئت واشيا
لئن ظعن الاحباب يا ام مالــــك ... فما ظعن الحـــب الذى فى فؤاديا
فيارب اذ صيرت ليلى هى المنى ... فزنى بعينيها كما زنتها ليـــــا
والا فبغضــــــها الى واهلهـــــا ... فانى بليلى قد لقيت الدواهيـــا
على مثل ليلى يقتل المرء نفســـه ... وان كنتمن ليلى علىاليأس طاويا
خليلى أن ضنوا باليــــلى فقربا ... لى النعش والاكفان واستغفر ليا

وردت هذه القصيدة فى كثير من المصادر منسوبة لامير العشاق قيس بن الملوح بن مزاحم بن عدس بن ربيعه المعروف بمجنون ليلى . وكان قد احب ابنة عمه . ليلى بنت سعد بن مهدى بن ربيعة . وانشد فيها شعرا جميلا عذبا تقبلته الاذواق والنفوس باعجاب شديد فذاع وشاع بين القبائل حتى عرف أمر غرامه بليلى وكلفه الشديد بها . وكان حبه قويا زلزل روحه وأضعف جسده مما دعا اهله الى محاولة خطبة ليلى له وتزويجه اياها ولكن اباها رفض هذا الزواج عملا بالتقليد المعروف لدى القبائل فى ذلك الحين بحرمان من يشبب بامرأة من الزواج بها دفعا للظنون واسكاتا للالسنة التى قد يجمح بها الخيال الى تصور أن ما جاء فى القصائد انما هو حقائق واقعة وأن الزواج ليس الا سترا لهذه الحقائق وتدخل الشفعاء والوجهاء والامراء لعل والد ليلى يرق لهذا العاشق ويزوجه ابنته ولكنه ابى الا العناد ويروى صاحب الاغانى أخبار هذه المساعى الخائبة لدى هذا الوالد العنيد فيقول ان ابا المجنون وامه ورجال عشيرته اجتمعوا الى ابى ليلى فوعظوه وناشدوه الله والرحم . وقالوا له : ان هذا الرجل لهالك . وانك فاجع به اباه واهله فنشدناك الله والرحم ان تفعل ذلك فوالله ما هى اشرف منه ومالك مثل مال ابيه وقد حكمك فى المهروان شئت ان يخلع عليك ماله فعل . فأبى وحلف بالله وبطلاق امها انه لا يزوجه اياها أبدا وقال : افضح نفسى وعشيرتى وآتى ما لم يأته أحد من العرب واسم ابنتى بميسم الفضيحة فانصرفوا عنه . وخالفهم لوقته فزوجها رجلا من قومها وأدخلها اليه فما امسى الا وقد بنى لها وبلغه الخبر فأيس منها حينئذ وزال عقله جملة فقال الحى لابيه . احجج به مكة وادع الله عز وجل له مرة أن يتعلق بأستار الكعبة فيسأل الله أن يعافيه مما به ويبغضها اليه . فلعل الله أن يخلصه من هذا البلاء فحج ابوه فلما صاروا بمنى سمع صائحا فى الليل يصحيح . ياليلى فصرخ صرخة . ظنوا أن نفسه تلفت وسقط مغشيا عليه فلم يزل كذلك حتى اصبح حائل اللون ذاهلا ثم قال له ابوه : تعلق بستار الكعبة واسأل الله أن يعافيك من حب ليلى فتعلق باستار الكعبة وقال اللهم زدنى لليلى حبا وبها كلفا ولا تنسنى ذكرها ابدا فهام حينئذ واختلط فلم يضبط قالوا فكان يهيم فى البرية مع الوحش ولا يأكل الا ما ينبت فى البرية من بقل ولا يشرب الا مع الظباء اذا وردت مناهلها وطال شعر جسده والفته الظباء والوحوش فكانت لا تنفر منه وجعل يهيم حتى بلغ حدود الشام فاذا ثاب عقله سأل من يمر به من أحياء العرب عن نجد فيقال له : واين انت من نجد فقد شارفت الشام . انت فى موضع كذا فيقول فارونى وجهة الطريق فيرحمونه ويعرضون عليه ان يحملوه او يكسوه فيأبى فيدلونه على طريق نجد فيتوجه نحوه . « جن قيس اذن وضاع عقله وهزل جسمه وتناقل الناس سيرته وشعره وتزوجت ليلى بالرجل الثرى ورد الذى اختاره لها أبوها . ويسقط المجنون ميتا بين أحجار الشعاب التى كان يفر اليها من ظلم العادات والتقاليد يسقط ميتا لتبقى قصة حبه وشعره اغنية الاجيال. عذبة بقدر ما فيها من حزن . ولتصير ليلى واحدة من اخلد المعشوقات فى تاريخ الادب ويظل قيس واحدا من اشهر عشاق العرب الشعراء . ويترك لنا الشاعر ديوانا يوشك ان يكون تجربة واحدة فى الحب والعذاب حب

واحد ومأساة واحدة وعذاب شديد متنوع الصور يبدأ بالفرح العظيم ويتطور الى الجنون لينتهى بالموت المأساوى بين شعاب الصحراء لا يؤنسه الا الوحش الذى كان أرفق به من بعض البشر . ويشك الكثيرون فى سيرة قيس ووجوده اصلا ويتعرض شعره أيضا للاضافة والحذف فالبعض يضيف اليه ما ليس له والبعض الآخر ينسب شعره لغيره . وهذه الاحتمالات التى تحيط بوجود قيس وشعره تثير وتضاعف الجدل حول حياته وتجعل هذه الحياة وهذا الفن مصدر بحث متصل واعجاب نادر بقصة الهوى والعذاب بل وتصير هذه القصة مبعث الهام لاعمال فنية اخرى مثل مسرحية مجنون ليلى لامير الشعراء احمد شوقى هذا هو الشاعر .. اما القصيدة فلها عالمها الرحيب الذى يصور القصة وابطالها وبيئتها أيضا .

يقول محقق الديوان الاستاذ عبد الستار احمد فراج ان هذه القصيدة اسمها المؤنسة وهى أطول قصيدة انشدها وواظب عليها . قيل أنه كان يحفظها دون اشعاره وانه كان لا يخلو بنفسه الا وينشدها وفى الخزانة أنها اشهر قصائده اذا اتأملنا هذه القصيدة وجدناها تعبر عن تجربة حياة قيس ابن الملوح كلها . فهى قصيدة حياة لا قصيدة تجربة . انها مجموعة من الانهار الموسيقية والصور الشعرية تتدفق حاملة الى القلب والنفس والروح هذا الحزن العميق الذى انبثق من الفقد والحرمان والهوى المستحيل ولانها قصيدة حياة فهى تبدأ من الطفولة . تبدأ من الذاكرة التى ترحل الى سنوات البراءة والصفاء واللهو حيث لا يوجد عذال ينهون عنه . وكأنه وهو فى غمرة الحرمان من ليلى وفى غمرة حصار التقاليد له يتذكر طفولتهما حيث كانت هذه الطفولة تتيح لهما التمتع بحرية ببعضهما البعض دون رقيب عليهما . وجميل وذو مغزى أيضا ان يبدأ التذكر بليلى فليلى هى جوهر الامال وهى المطلب الاساسى ثم يأتى الزمان الذى يشكل مسرح القصة . ويقفز الشاعر بعد ذلك مباشرة الى الزمن الذى يعيش فيه لانه يتألم ويعانى الى حد يصبح معه التذكر ترفا . انه يصور رحلة له مع اصحابه . وها هى الكواكب فى سواد الليل تختلط عليه بنار ليلى . انه لا يرى هذه الكواكب الا نار ليلى . هو لا يرى ما حوله بل ما بداخله فبينما يقول اصحابه انهم يرون كوكبا يقول هو بل هذه نار ليلى . وتتناثر الابيات فى ذاكرة الشاعر فلا يكاد يقيم لها نظاما منطقيا فيتحدث مرة عن نبات الغضى وهو نبات سريع الاحتراق وكأنه وجد فيه معادلا نفسيا لما بداخله . وان كان هذا البيت لا ينتمى انتماء أصيلا الى القصيدة ثم يتوجه بالحديث الى ليلى ليخبرها ان كانت لا تدرى باهميتها لديه فهو يذهل عن حاجته اذا جاء طالبا لها من تأثير ادمانه التفكير فيها ويطلب من اصدقائه مشاركته فى البكاء والحزن . ويبدو ان الفراق كان يباعد بين ليلى وقيس فى هذه الفترة ولكنه فى الوقت نفسه يمنى نفسه باللقاء المأمول .

وقد يجمع الله الشتيتين بعد ما   يظنان كل الظن أن لا تلاقيا

وهو ينكر أن يكون هذا الفراق قد دفعه الى السلوان او انه وجد شفاء لهذا الحب . وكأن الحب مرض أصيب به ولماذا لا يصوره كمريض وقد اتلف عقله واضعف جسده وتركه هائما على وجهه لا يدرى من امره شيئا . وكأنه حلم التذكر كامن فى ضميره وفى عمق مخيلته فنراه يعود اليه مرة اخرى ليبرهن على أن حبه لليلى حب قديم نشأ مع طفولته وطفولتها وشب معهما أيضا . وكان قيس قد بلغه أن الوشاه يتحدثون عنه وعن احتمال نسيانه لليلى فينكر ذلك اشد الانكار . وهو يعلن بتأكيد واصرار أن حب ليلى ثابت فى جوانحه لا يمكن ان ينساه . ولا يؤثر فى هذا الحب فقر ولا غنى ولا توبة ولا نسوة مغريات يحاولن اغراءه والتقريب اليـــه بالتزين على طريقة ليلى لعله يخدع فيهن . جاءت هذه القصيدة بعد فترة طويلة من معاناة حبه بعد ان ظهرت الشائعات عن سلوه وبعد ان تزوجت بغيره فنراه منضجرا من هذه القسمة التى لا يقدر على احتمالها فقد قدر له ان يعشقها وقدر لها ان تكون لغيره .

قضـــاها لغيرى وابتلانى بحبهـــا   فهلا بشىء غير ليلى ابتلانيـــا

يعود مرة اخرى الى التذكر والتأمل والحديث الطويل عن الوشاة الذين يتعقبون خطواته وهو لا يدرى لماذا يحرصون على تصريم حبالهما . ويتأمل الشاعر حاله فيرى ان حب ليلى قد غلبه وقهره حتى تحكم فى أمره لقد كان غالبا على حبه مسيطرا على مشاعره ولكن هذا الحب قد تطور حتى غلبه وتحكم فيه انه يرجوا العدل فى الحب . حتى لا يكون مظلوما مغلوبا على أمره .

فيارب ســــــو الحب بينى وبينها   يكون كفافا لا على ولا ليـــا

ونحن نرى الشاعر يذكر دمشق فى قصيدته فأين هو من دمشق لقد كانت قريته فى أرض نجد فكيف نراه قريبا من دمشق حيث يقول «ولا سرت ميلا من دمشق ولا بدا . سهيل لاهل الشام الا بداليا » .

أن هذا البيت يوحى بأن فيه خروجا منطقيا على مكان القصة ولكن القارىء لكتاب الاغانى يرى ان المجنون كان يهيم على وجهه حتى يصل الى اطراف الشام فيسأل عن نجد فيقولون له واين أنت من نجد . ان الشاعر فى هذه القصيدة يعطى انطباعا بالغربة فهو يذكر الريح التى تهب نحـــو أرض الحبيبة والتى تهيج أحزانه ويخاطب محبوبتـــه محاولا أن يعطف قلبها عليه . ويدخل الشـــاعر بعد ذلك فى تعبير بليغ عن مدى القداسة التى وصلت اليها الحبيبة فى نفســه . هل هى قداسة حقيقية ام هو ذهول عن نفسه فلا يكاد يدرى ماذا يفعل وهل يدرك المجنون ماذا يأتى من الافعال . ولكنه يدفع عن نفسه رغم ذلك تهمة الشرك بالله . انه على وعى اذن بالحدود التى ينبغى أن يقف عندها . ولكنه غير قادر على ذلك .

أرانى اذا صليت يممت نحوها بوجهى وان كان المصلى ورائيـــا
وما بى اشراك ولكن حبهــــا وعظم الجوى أعيا الطبيب المداويا

تبدأ القصيده بعد هذه المرحلة التصويرية الباهرة فى الانتقال الى نوع من المناشدة والحوار مع النفس والبكاء الحزين اشفاقا على النفس مما ألم بها .ويكاد الشاعر أن يدفعنا الى البكاء وهو يكاد يعلن عنفقدان رغبته فى الحياة بعد أن ذهبت ليلى الى غيره . ان الحمائم النائحة تهيج احزانه وهى ليست فى حاجة الى من يهيجها .

لعمرى لقد ابكيتنى ياحمامــ ـــة العقيق وابكيت العيون البواكيا

ان تعبير العيون البواكى يؤكدان حزن الشاعر غامــر وان البكاء الذى أثاره نواح الحمائم هويكاء جديد يضاف الى البكاء المتصل القديم . وتتصاعد الشكوى وينصاعد العذاب وتنتقل القصيدة من العتاب الاليم الى الشكوى الى الاستعطاف الى تأكيد الولاء حتى انه ليتجه براحلته الى حيث تقيم .

يمينا اذا كانت يمينـــا فان تكن شمالا ينازعنى الهوى عن شماليا

وما أعـــذب جمال هذا البيت الذى يصـــور فيه الشاعر التظاهر بالنوم لعلها حبيبته تأتيه فى الحلم وكأنه قادر على خداع الاحلام ولـــكنه الشوق الغلاب المضنى وتستمر حملة الشاعر الشعواء على الوشـــاة الذى لا يتركونه وشأنه ويؤكد لليلى انه اذا كانت الايام لا تكف عن دفعنا الى الرحيل الهائم وهو احد العلامات الاساســية والضرورية لحيــــاة البادية . فان حبه لها ثابت ومقيم .

لئن ظعن الاحباب يا أم مـــالك فما ظعن الحب الذى فى فؤاديا

ويقترب الشاعر بعد يأسه القاتم من الموت هذا الشاطىء الاخير لرحلة المعاناة . وانه شاطىء النهاية المحتومة :

رغم انه يعتصم بنوع من الوهم وبصيص من الامل ولكنه لا يملك الا اليأس فى ختام محاولاته .

خليلى أن ضـــنوا بليلى فقربا لى النعش والاكفان واستغفرا ليـــا
والقصيدة بهذا تصل الى ختامهـــا مشحونة بالشجن والرحيـــل والفرح النادر والامل المستحيل . والقصيدة ليست محكمة البناء ولاتحكمها الوحدة العضوية ولا النمو المنطقى ولكنها لا تريد ان تقدم تجربة بل حياة كاملة يحمله الشعر على جناحه . واذا كانت الحياة البشرية قد وجدت ختامها فى الفناء والعدم فان الشعر قد ظل محلقا فى سماء الخلود .

غزليـــات الأحوص

رام قلبى السـلو عن أسـماء   وتعزى ومـا به من عـزاء
سخنة فى الشـتاء باردة الصـيف سراج فى الليلة الظلمـاء
كفنائى انمت فى درع أروى وامتحـ   الى من بئر عـروة مائـى
اننى والذى تحـج قريشـ   بيتـه سـالكين نقب كـداء
للم بهـا وان أبـت منهـا   صـادرا كالـذى وردت بـداء
ولها مربـع ببرقة خـاخ   ومصـيف بالقصر قصر قبـاء
قلبت لى ظهر المجـن فأمست   قد أطـاعت مقـالة الاعـداء

***

وانى ليدعونى هوى أم جعفـر   وجاراتهـا من سـاعة فأجيب
وانى لآت البيت ما أن أحبـه   وأكثـر هجـر البيت وهو حبيب
تطيب لى الدنيا مرارا وانهـا   لتخبث حتى مـا تـكاد تطيب
وانى اذا مـا جئتكـم متهلـلا   بدا منـكم وجـه على قطوب
وأغضى على أشياء منكم تسؤنى   وأدعـى الى ما سركم فأجيب
وأحبس عنك النفس والنفس صبة   بقربك والمشى اليـك قريـب
وما زلت من ذكراك حتى كأننـى   أميم بأفيـاء الديار سـليب
أبثك ما القى وفى النفس حاجـة   لها بين جلدى والعظـام دبيب
هبينى امرأ اما بريئا ظلمتـه   واما مسـيئا مذنبا فيتـوب
لك الله انى واصـل ما وصلتنى   ومثـن بمـا أوليتنى ومثيـب
وآخذ ما أعطيت عفـوا واننـى   لأزور عمـا تكرهين عيـوب

***

قالت ــ وقلت تحرجـى وصـلى   حبل امرىء بوصـالكم صـب
واصـل اذن بعلى فقلت لهـا   الغـدر شـىء ليس من ضربى
ثنتـان لا أدنو لوصـلهما   عرس الخليـل وجـارة الجنب
أمـا الخليـل فلست فاجعـه   والجـار أوصـانى به ربـى
وببطـن مـكة لا أبـوح به   قرشـية غلبت على قلبـى
ولو انهـا اذ مـر موكبهـا   يوم الكديد أطـاعنى صحبـى
قلنـا لها حييت من شـجن   ولركبهـا حييت مـن ركـب
والشـوق أقتـله برؤيتهـا   قتل الظما بالبـارد العـذب
والنـاس ان حـلوا جميعهم شـعبا سـلام وأنت فى شـعب
لحللت شـعبك دون شـعبهم   ولكن قربى منكـم حسـبى
عوجوا كـذا نذكر لغانيـة   بعض الحديث مطيكم صـحبى
ونقل لها فيم الصـدود ولـم   نذنـب بـل انت بدأت بالذنب

أن تقبـلى تقبـل وننزلـكم منا بدار السهل والرحب
او تدبرى تكدر معيشتنا وتصدعى متلائم الشعب

***

أففى كل يوم حبة القلب تقرع وعينى لبين من ذوى الود تدمع
أبا الجد انى مبتلى كل ساعة بهم له لوعات حزن تطلع
اذا ذهبت عنى غواش لعبرة اظل لاخرى بعدها أتوقع
فلا النفس من تهما مها مستريحة ولا بالذى يأتى من الدهر تقنع
ولا أنا باللائى نسبت مرزؤ ولا بذوى خلص الصفا ممتع
واولع بى صرف الزمان وعطفه لتقطيع وصل خلة حين تقطع
وهاج لى الشوق القديم حمامة على الايك بين القريتين تفجع
مطوقة تدعو هديلا وتحتها له فنن ذو نضرة يتزعزع
وما شجوها كالشجو منىولا الذى اذا جزعت مثل الذى منه أجزع
فقلت لها لو كنت صادقة الهوى صنعت كما أصبحت للشوق أصنع
ولكن كتمت الوجد الا ترنما أطاع له منى فؤاد مروع
وما يستوى باك لشجو وطائر سوى أنه يدعو بصوت وتسجع
فلا أنا مما قد بدا منك فاعلمى اصب بعيدا منك قلبا واوجع
ولو أن ما اعنى به كان فى الذى يؤمل من معروفه اليوم مطمع
ولكننى وكلت من كل باخل على بما اعنى به وامنع
وفى البخل عار فاضح ونقيصة على أهله والجود أبقى واوسع
أجدك لا تنسى سعاد وذكرها فيرقاء دمع العين منك فتهجع
طربت فما ينفعك يحزنك الهوى مودع بين راحل ومودع
أبى قلبها الا بعادا وقسوة ومال اليها ود قلبك اجمع
فلا هى بالمعروف منك سخية فتبرم حبل الوصول أو تتبرع
ولا هو اما عاتب كان قابلا من الهائم الصب الذى يتضرع
افق أيها المرء الذى يهمومه الى الظاعن النائى المحلة ينزع
فما كل ما أملته أنت مدرك ولا كل ما حاذرته عنك يدفع
ولا كل ذى حرص يزاد بحرصه ولا كل راج نفعه المرء ينفع
وكم سائل امنية لو ينالها لظل بسوء القول فى القوم يقنع
وذى صمم عند العتاب وسمعه لما شاء من أمر السفاهة يسمع
ومن ناطق يبدى التكلم عيه وقد كان فى الانصات عن ذاك مربع
ومن ساكت حلما على غير ريبة ولا سوأة من خزية يتقنع

***

هذه المختارات من شعر الغزل لواحد من اهم شعراء العصر الاموى وهو الاحوص يقف مرة الى جوار مدرسة عمر بن أبى ربيعة بما عرف عنها من غزل صريح وولع بالجمال وتعقبه فى غير حرج ولا تأثم ومرة أخرى يضعه بعض مؤرخى الادب بالقرب من مدرسة جميل بن معمر شاعر الغزل العذرى ولكنه بين هؤلاء شاعر لا تغفله

الروايات ولا يهمله التقييم الادبى وقد جعله ابن سلام فى الطبقة السادسة من شعراء الاسلام وجاء موقعه فى تقييم ابن سلام بعد عبد الله بن قيس الرقيات وجميل بن معمر ونصيب ويقول أبو الفرج الاصفهانى «والأحوص لولا ما وضع به نفسه من دنىء الاخلاق والافعال اشد تقدما منهم عند جماعة أهل الحجاز وأكثر الرواة وهو أسمح طبعا وأسهل كلاما وأصح معنى منهم ولشعره رونق وديباجة صافية وحلاوة وعذوبة الفاظ ليست لواحة منهم « أما نسب الشاعر الكامل فهو عبد الله بن محمد بن عبد الله ابن عاصم بن ثابت ابن أبى الاقلح .. وكان جده عاصم رئيس وفد بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم الى احدى قبائل العرب فقتل غدرا وحمله السيل فأخفاه عن عيون المشتركين ولكن يبدو أن الشاعر لم يكن على شبه بجده من الصلاح والتقوى بل هو شاعر أقرب الى المجون واللهو وخلع عذار الحياء بل الى الفسق نفسه وكان لسوء خلقه أثر كبير فى نفور الناس من مصاحبته كما تعرض للنفى والجلد على يد سليمان بن عبد الملك وحين وليى الامر عمر بن عبد العزيز أقصاه عنه وقرب غيره من الشعراء ويبدو أنه كان دميما فأشاع ذلك فى نفسه نوعا من الحزن العميق قاده الى التحرر والتحلل والخروج على العرف والدين والاخلاق فى عصره وكلمة الاحوص مأخوذة من صفة الاحمرار فى العينين .

ويبدو أن هذا الاحمرار قد ضاعف من قبح وجهه فكان غير قادر على اقامة علاقات طبيعية مع ربات الحجال فلم يعرف عنه أنه وفق فى علاقة عاطفية ولا أنه كان مرغوبا من النساء شأن عمر بن أبى ربيعة الذى اتسم بالوسامة ورفعه الجاه والطبقة والشهرة بالحظوة عند النساء ولكن الاحواص كان ذا قدم ثابتة فى مجال شعره شهد له بذلك الافذاذ من الشعراء فى عصره ومنهم الفرزدق الذى يروى صاحب الاغانى أنه قدم المدينة ثم خرج منها فسئل عن شعرائها فقال رأيت بها شاعرين وعجبت لهما احدهما أخضر يسكن خارجا من بطحان (يريد ابن هرمة) والآخر احمر كأنه وحرة على برودة شعره (يريد الاحوص) .

عاش الاحوص حياة النافر من مجتمعه ولم يجد قبولا من الخلفاء الا بعد وفاة عمر بن عبد العزيز وتولى يزيد بن عبد الملك بن مروان .. ويرى محقق ديوانه الاستاذ عادل سليمان جمال ان الاحوص كان مغرما بسلامة المغنية وانها هى أيضا كانت مغرمة به فيقول ، أما سلامة القس فهى المغنية التى تعلق بها ، الاحوص تعلقا شديدا ويبدو أنه أحبها وكلف بها « أما الدكتور طه حسين فبعد أن يشرح موقف الشاعر الدينى ويوافق كما يبدو على الرويات المتعددة التى تصفه بالفسق والفجور يعترف بشاعريته ويستشهد على ذلك بآراء كبار شعراء عصره فيه يقول الدكتور طه حسين فى كتابه حديث الاربعاء « كان الاحوص غزلا ولكنه كان مفتنا فى ضروب الشعر كلها له الفخر الرائع والمدح البديع والهجاء

المقذع وذلك لانه لم يكن متكلفا ولا محتشما وانما كان يرسل نفسه على سجيتها وكانت نفسه خصبة غنية بضروب الخير والشر فكان يكفى أن يعكف على هذه النفس لحظة فيجد فيها كل ما يريد .. كان حلو اللفظ متينة قوى الاسلوب رصينة يبلغ الاجادة اللفظية فى غير تكلف ولا مشقة ولم يكن كغيره من الغزلين المكيين يعنى بالمعنى يستخف بالالفاظ وانمـا كان حريصا على التجويد فى لفظه ومعناه جميعا .

عاش الأحوص بسبب قبح وجهه منحرف النفس وحين تولى يزيد بن عبد الملك دخل عليه الاحوص فقال له يزيد والله لو لم تمت الينا بحرمة ولا توسلت بدالة ولا جـددت لنا مدحا غير أنك مقتصر على البيتين الذين تلتهما فينا لكنت مستوجبا لجزيل الصلة منى حيث تقول :

وانـى لاستـحييكم أن يقودنى الى غيركم من سـائر الناس مطمع
وان اجتـدى للنفـع غيرك منه وانت امـام للرعاية مقنـع

وقد مات الاحوص فى خلافه يزيد بن عبد الملك كما يرى الاستاذ عادل سليمان بعد حياة من المعاناة والقسوة ولكن الشاعر استطاع أن يضيء هذه الحياة بمصباح شعره الوهاج المتألق . اذا وقفنا أمام هذه الغزليات رأيناها مطابقة لتلك الصفات التى أطلقها عليه النقاد القدامى فهو سهل العبارة واضح المعنى جزل الالفاظ .

تكثر الاسماء فى هذه الغزليات فهو يذكر أم جعفر وسلام وأسماء وغيرهن ولكن ذلك لا يخدعنا فنتصور أنه أقام صلات بكل هاته النسوة اللائى ذكرهن فتلك الأسماء الكثيرة التى ذكرها الشعراء الغزلون انما تدل أولا على نمط من هؤلاء الشعراء هم الذين لا يوقفون حبهم على امراة واحدة وانما هم يتبعون هواهم فى تعقب الجمال أينما وجد وتدل ثانيا على أن تقاليد المجتمع البدوى ما كانت لتبيح للشاعر أن يصرح باسم محبوبته فكان يتخذ هذه الاسماء بمثابة اقنعة لاسم حبيبته الحقيقية .

والغزلية الاولى من هذه الغزليات تقدم صورة من صور الازمات العاطفية التى مر بها الشاعر فحبيبته أسماء قد سمعت كلام الوشاة فيه فهجرته على ما يبدو ممـا دفعه الى اليـأس منها والبحث عن العـزاء والسلوان ولكن أنى له بذلك وهى كما وصفها دافئة فى الشتاء باردة فى الصيف سراج فى الليلة الظلماء .. كل هذه الصـفات التى تجمـع بين الحـواس المختلفة تعمق فى المتلقى لشعره صـورة جذابة لهذه الحبيبة الهاجرة وهو يقسم على أن يلم ببيتها حتى لو كانت هذه الزيارة مصدر الالم ولا جدوى منها .. والقصيدة تؤكد ثلاثة معان أساسية الوصـف الخارجى للشخصية المحبوبة والعزم على المضى فى الحب مهمـا كانت العقبات ثم توضيح الشخصية الاجتماعية للحبيبة وطبقتها الراقية التى تنتهى اليها فهى لها مشتى ومصيف أن الشاعر فى هذه الابيات القليلة قد بلغ من نفوسنا حد الاعجاب بهذه السهولة والجزالة والدقة فى اصـابة

المعنى الذى يريد ايصاله لنا . فاذا انتقلنا الى الغزلية الثانية رأيناه يقف موقف الاستعطاف والتوبة وطلب الرضا من أم جعفر ويبدو ان الشاعر كان بعيدا عن الحظوه من النساء فجاء شعره يطفح بهذا الالم وهذا الجفاء الذى يعانية من حبيباته ويروى الدكتور طه حسين قصة أم جعفر هذه فيقول :

زعموا أنه أى الاحوص أسرف فى ذكر أم جعفر وهى أنصارية عفيفة فلما ضاق بها الأمر اقبلت ذات يوم متنكرة حتى وقفت عليه وهو فى جماعة من قومه فقالت له : أقضنى ثمن الغنم التى اشتريتها منى فأنكر ذلك والحت وصدقها الناس واخذ هو يحلف ما رآها ولا يعرفها فكشفت عن وجهها واصر هو على انكاره وقد اجتمع حولهما الناس فلما بالغ فى الانكار قالت أم جعفر صدقت يا عدو الله ، والله ما اعرفك وما تعرفنى ولكنك تذكرنى فى شعرك فتقول قالت لى أم جعفر وقلت لها ويشيع ذلك فى الناس فخجل الاحوص وقارىء الغزلية يوقن من صدق الاحوص فى حبه أو على الاقل فى ولعه بالجمال وقد تكون أم جعفر أخرى هى المقصودة .

تجىء هذه الغزلية حافلة بالاحساس بأن الشاعر غير مرغوب فيه وهو وان كان يرى ان الدنيا تطيب له أحيانا واحيانا أخرى تخبث فان أزمة الشاعر انه يميل الى من لا يرغب فيه فها هو يجىء متهللا فلا يجد الا التقطيب ويبدو أن الاساءة اليه لم تكن فقط مجرد اهماله بل انه كان يغضى على الكثير ويلجأ فى بعض الحالات الى الامتناع عن زيارتها لاثارة اهتمامها ولكن قربه وبعده لم يسفرا عن تحقيق المرام وها هو فى النهاية يعلن انه لم يملك حججا منطقية لاقناعها فهو يقول لها اما أن أكون مظلوما بسبب هذا الهجر فيحق لها اذن أن تصرف عنه ظلمها أو أنها تعتبره مذنبا فيؤكد لها انه على استعداد للتوبة ويبدى لها الرضى بما تجود به مهما كان هذا الذى تسمح به أريحيتها حتى لو صدر منها بلا قصد . هو راض وسعيد بما يرضيها وهو مقلع عن كل ما يغضبها وما يكون الحب سوى هذا .

أما الغزلية الثالثة فيبدو أنها تجربة عابرة لم تبلغ من نفسه حد التوله والهيام ويبدو أن الشاعر فى هذه الغزلية قد وجد الفرصة سانحة للدفاع عن أخلاقه التى كانت موضع شبهة من الجميع. ولا نكاد نقرأ هذه الغزلية حتى نتعجب للتناقض فيها فهو يتعرض لامرأة يزعم أنه يحبها وهى زوجة لعوب تمهد له سبيل القرب منها فتنصحه بأن يصادق زوجها واذا به يصرح بأن اخلاقه لا تقبل هذا الغدر بالصديق فهو يرعى ذمام الصداقة والجوار .

ثنتان لا ادنو لوصلهما عرس الخليل وجارة الجنب

والذى يخرجنا من هذا التناقض هو التوهم بأن الاحوص لم يكن يدرى بأن لهذه المرأة زوجا أو انه اتخذها ذريعة للدفاع عن أخلاقه . والشاعر فى هذه القصيدة بالغ الحذق فى الحوار وفى الكشف عن شخصية

حبيبته وفى الحديث عن نفسه وفى ابتداع الصور الشعرية البارعة التى تصور قدرته على الصياغة الفنية لاحاسيسه التى قد تكون عادية ولكن التعبير عنها هو الذى جاء غير عادى وكم هو رائع البيت الذى يقول :

والشـــوق أقتله برؤيتهـــا   قتـــل الظمـــا البارد العذب

بيت حافل بالتجسيد وقوة التصوير وبراعة التركيب بين الاشياء ليقدم لنا احساسه العارم بحب هذه المراة وشوقه اليها . فاذا جئنا الى غزليته الاخيرة وجدناها حافلة بهذا الايقاع العميق الذى يذكرنا بمجنون ليـلى وبقيس بن ذريح وهذه الغزلية تنفرد بخاصية هامة هى انها تحمل نوعا من التوجع الشامل الذى يقتصر على فشل فى تجربة الحب بل هى تعبير عن فشل واضح فى تجربة الحياة ذاتها . ويبدو أن الشاعر كان كثير الارزاء فها هو يبدأ قصيدته بالاستفهام التعجبى (أفى كل يوم حبة القلب تقرع) واستخدام لفظ القرع يوحى بأن ما يحدث للشاعر هو نوع من المصائب الكبرى والشدائد الثقال فهو ما أن ينعم بذهاب غاشية من غواشى الحياة حتى يزعجه توقع غاشية جديدة فنفسه على خشية دائمة مما يقع لها ومما سـيقع أيضـا ولـكأن الـزمان قـد أولع بـه فهو مـاض فى تقطيع صلاته . أن الابيات الستة الاولى توحى بالظلال القاتمة التى تسيطر على مناخ حياة الشاعر وتؤكد أن هذه الحياة تتأرجح بين المصائب لا تحظى بالراحة ولا بالقناعة . ثم ينتقل الى الحمامة الشهيرة فى الشعر العربى حمـامة الشـعراء المؤنسـة التى تظهـر فى القصائد رفيقـة مواسية لهؤلاء الحزانى الذين لا يجدون تعاطفا من البشر الذين يحيطون بهم وهذه الحمامة التى تنادى هديلا كأنها تطلب المستحيل لا تكاد تقترب من حزنها فى شىء من هـــذا الحـزن الثقيل الذى يجثم على صـدر الشاعر حتى انه حين يحاول المقارنة بينه وبينها يرى نفسه يبكى ويراها تغنى وما أبعد المسافة بين البكاء والغناء فهو اذن لا يقنع بمشاركة الحمامة له فى حزنه . وهو يصرح لنا أن حزنه هذا من أجل من لا أمل فى وصله ولا عطائه .

ولو أن مـــا أعنى به كان فى الذى   يؤمل من معروفه اليوم مطمـــع
ولــكننى وكلت من كل باخـــل   على بمـــا أعنى بـــه وأمنـــع

وحبيبة الاحوص فى هذه القصيدة ذات اسم جديد هو سعاد .. ان سعاد فى هذه القصيدة مصرة على البعد والقسوة رغم أنه يمنحهـا وده أجمع .. وكلمة اجمع هنا جاءت لتأكيد الهوة بين ما يضمره لها الشـاعر وما تفعله به ولا يجد الشاعر امامه سوى أن يجرد من نفسه شخصا آخر أكثر حزما ينهره ويزجره عن المضى فى هذا السبيل اليائس الذى لا أمل فيه فهو يؤكد له انه لن يحظى بكل ما يريد ومن ذا الذى يحظى بكل ما يريد فى هذه الدنيا . فلا أنت قادر على أن تنال كل ما تريد ولا أنت قادر على دفع كل ماتحاذر أن يحدث .. ثمة قدرية واضحة تلوح لعينى الشـاعر حتى تهدأ النفس وتستريح..وهو يفترض أن الرضى لا يتحقق حتى ولو نال المراد فكم من أمنية تجلب سخط الناس لو تحققت لصاحبها . يلجأ الشاعر الى حيلة أخرى لتعزية نفسه عن فشلها فى الحب ربما ؟ .... فى الحياة

بكل تأكيد : ان الحكمة الشعرية العربية التقليدية تتوج هذه الغزلية البالغة الجزالة والرقة لتعطى للشاعر راحة متوهمة لم تستطع الحياة أن تمنحها له وهو شاعر سيء الحظ لدى الحسان لم ينفعه معهن شعره الرقيق ولا ميله العميق واذا كانت قصائده تؤكد أنه لم يكسب رضا النساء فهى تؤكد أيضا انه لم يخسر الشعر !!



غزليـــــات

عمر بن ابى ربيعة

— ١ —

ليت هندا انجزتنـــــا ما تعـــــد — وشـــفت انفســـــنا مما تجـــــد
واســــتبدت مـــــرة واحـــــدة — انمــــا العـــــاجز من لا يســـتبد
زعموهـــــا ســــــألت جاراتهـــا — وتعـــــرت ذات يــوم تبتـــــرد
أكمـــــا ينعتننــــى تبصرننـــــى — عمركـــن اللــــــه ام لا يقتصـــد
فتضـــــاحكن وقـــلن لهـــــا — حســـــن فى كل عـــين من تـــود
حســـــد حملنــــه من شـــــأنها — وقديما كان فى النـــاس الحســـد
غـــــادة يفتر عـــن أشـــــنبها — حـــين تجـــلوه اقاح أو بـــرد
ولهـــا عينــــان فى طرفيهمــــا — حــــور وفى الجيـــــد غيـــــد
طفــــــلة باردة القيـــــظ اذا — معمعان الصيف أضحى يتقـــد
ســـخنة المشـــتى لحـــاف للفتى — تحت ليل حـــين يغشـــاه الصرد
ولقـــــد اذكـــر اذ قلت لهـــــا — ودموعى فـــــوق خـــدى تطـــرد
قلت من انـــت فقــــالت أنا من — شــــفه الوجــد وابلاه الكمــد
نحن أهـــل الخيف من أهـــل منى — مـــــا لمقتـــول قتلنـــــاه قود
قلت أهـــــلا انتــــم بغيتنـــــا — فتســـــمين فقـــالت أنا هنـــــد
انمــــــا خبـــــل قلبى فاحتـــوى — صـــعدة فى ســــــابرى تطـــرد
انما أهـــــلك جــــيران لنـــــا — انمــــــا نحن وهـــم شىء أحـــد
حدثونى أنهـــــا لـــى نفثـــــت — عقدا يا حبـــــذا تلك العقــــــد
كلمـــــا قلت متـــى ميعـــــادنا — ضحكت هنـــد وقالت بعد غـــــد

— ٣ —

ضـــــقت ذرعا بهجرهـــــا

قال لى صــــاحبى ليعلم ما بى — اتحـــب القتـــول اخـــت الرباب
قلت وجدى بها كوجدك بالمـــــاء — اذا مــــا منعـــت برد الشـــراب
من رســـولى الى الثريا بأنـــــى — ضـــقت ذرعا بهجرهـــا والكتاب
أزهقـــت أم نوفـــل اذ دعتهــــا — مهجتـــــى مالقاتلى من متـــــاب
حــــين قالت لهـــا أجيبى فقالت — من دعانى ؟ قالت أبو الخطـــاب
ابرزها مثــــل المهـــاة تهـــادى — بين خمـــس كواعـــــب أتـــراب
فأجابت عند الدعاء كمالبى رجال — يرجـــون حســـــن الثـــواب
وهى مكنونة تحـــــير منهـــــا — فى أديم الخـــدين مـــاء الشـــباب
دمية عند راهب ذى اجتهادـــــــ — صـــــورها فى جـــانب المحراب

وتكنفنها كواعب بيض … واضحات الخدود والأقراب
ثم قالوا تحبها قلت بهرا … عدد النجم والحصى والتراب
حين شب القتول والجيد منها … حسن لون يرف كالزوياب
اذكرتنى من بهجة الشمس لما … طلعت من دجنة وسحاب
فارجحنت فى حسن خلق عميم … تتهادى فى مشيها كالحباب
قلدوها من القرنفل والدر … سخابا واهاله من سخاب
غصبتنى مجاجة المسك نفسى … فسلوها ماذا احل اغتصابى

ياليتنى افتدى

ياصاحبى اقلا اللوم واحتسبا … فى مستهام رماه الشوق بالذكر
ببيضة كمهاة الرمل آنسة … مفتانة الدل ريا الخلق كالقمر
سيفانه فنق جم مرافقها … مثل المهاة تراعى ناعم الزهر
ممكورة الساق غرثان موشحها … حسانة الجيد واللبات والشعر
لو دب ذر رويدا فوق قرترقها … لأثر الزر فوق الثوب فى ابشر
قالت قريبة لما طال بى سقمى … وانكرت بى انتقاص السمع والبصر
يا ليتنى أفتدى ما قد تهيم به … ببعض لحمى وبعض النتص عمرى
قد يعلق القلب حبا ثم يتركه … خوف المقال وخوف الكاشح الأثر
دع حبها وتناسى الحب تلق به … واصبر وكن كصريع قام من سكر
فقلت قولا مصيبا غير ذى خطل … أتى به حبها فى فطنة الفكر
سمعى وطرفى حليفاها على جسدى … فكيف أصبر عن سمعى وعن بصرى
لو تابعانى على أن لا أكلمها … اذا لقضيت من أوطارها وطرى
دل الفؤاد عليها بعض نسوتها … ونظرة عرضت كانت من القدر
وقول بكر الم تلمم لنسألهم … وانظر فلا بأس بالتسليم والنظر
لا أنس موقفها وهنا وموقفنا … وتربها بتربانا على خطر
وقولها ودموع العين تسبقها … فى نحرها: دين هذا القلب من عمر

***

شاعر هذه الغزليات هو عمر بن أبى ربيعه اشهر شعراء الغزل فى الأدب العربى ويكنى « أبا الخطاب » ولد كما يقول صاحب الأغانى ليلة مات الخليفة عمر بن الخطاب وقيل فى التعليق على ذلك اى حق رفع وأى باطل وضع . لما عرف عن الشاعر بعد ذلك من ولع شديد بالجمال وتشبيب صريح بالنساء . عاش عمر حياة مترفة لاهية لا هم له الا مطاردة أجمل نساء عصره واستخدام شعره وسيلة لاصطيادهن والتحدث اليهن وجاء شعره تعبيرا عميقا عن حياة الطبقة الاورستقراطية الحجازية فى ذلك العصر كما كان هذا الشعر جديدا كل الجدة فى أسلوبه وفى معانيه وألفاظه ولعله أقرب الشعراء العرب القدامى من ذوق العصر الحديث ببساطته الشديدة وجراته وانطاقه عواطف المراة بمكنون أسرارها . وقد نال الشاعر اعتراف كبار الشعراء قال عنه الفرزدق بعد أن سمع نسيبه هذا الذى كانت الشعراء تطلبه

فأخطأته وبكت الديار ووقع هذا عليه وقال جرير « مازال هذا الغلام يهذى حتى قال الشعر وقال صاحب الأغانى نقلا عن الزبير بن بكار أدركت مشيخة من قريش لا يزنون بعمر بن أبى ربيعة شاعرا من أهل دهره فى النسيب ويستحسنون منه ما كانوا يستقبحونه من غيره من مدح نفسه والتحلى بمودته ، وروى صاحب الاغانى قال حدثنا الزبير بن بكار عن عمه مصعب أنه قال :

« راق عمر بن أبى ربيعة الناس وفاق نظراءه وبرعهم بسهولة الشعر وشدة الاسر وحسن الوصف ودقة المعنى وصواب المصدر والقصد للحاجة واستنطاق الربع وانطاق القلب وحسن العزاء ومخاطبة النساء وعفة المقال وقلة الانتقال . واثبات الحجة وترجيح الشك فى موضع اليقين وطلاوة الاعتذار وفتح الغزل ونهج العلل وعطف المساءة على العذال واحسن التفجع وبخل المنازل واختصر الخبر وصدق الصفاء ان قدح أورى وان اعتذر أبرا وان تشكى أشجى واقدم عن خبرة ولم يعتذر بغرة واسر النوم وغم الطير واخذ السير وحير ماء الشباب وسهل وقول وقاس الهوى فأربى وعصى وأخلى وحالف بسمعه وطرفه وابرم نعت الرسل وحذر وأعلن وأسر . وبطن واظهر . والح واسف واذل وجنى الحديث وضرب ظهره لبطنه وأذل صعبه . وقنع بالرجاء من الوفاء . وأعلى قاتله واستبكى عاذله ونفض النوم وأعلن رهن منى وأهدر قتلاه وكان بعد هذا كله فصيحا »

ان هذا التقييم النقدى القديم لشعر عمر بن أبى ربيعة يعكس تقديرا بالغا لهذا الشعر ولم يحظ شاعر قبله ولا بعده بقدر كبير من الاتفاق على قيمته الشعرية كما حظى عمر بن أبى ربيعة وكان الدكتور طه حسين يرى أن الشعر الغزلى فى العصر الأموى أرفع مكانة وأعلى قيمة من الناحية الفنية وصدق الشعور من الشعر العربى فى كل عصوره وكان الدكتور طه حسين يضع عمر بن أبى ربيعه على رأس شعراء الغزل فى العصر الأموى وبهذا يكون عمر بن أبى ربيعه أعظم شعراء الغزل العربى فى نظر الدكتور طه حسين كما يقول فى كتابه حديث الأربعاء .

« نعم . هو زعيم الغزلين من أهل الحضر فى عصره لا يختلف فى ذلك الناس وقد تحس فيما تقرؤه من اخبار هؤلاء الغزليين أن الرواة كانوا يضعون عمر من أهل الحضر بازاء جميل من أهل البادية فكأن عمر كان زعيم الغزل الحضرى حينما كان جميل زعيم الغزل البدوى ولكن شعر جميل قد ضاع ولم يبق لنا منه الا شىء قليل جدا . فلم يبق سبيل الى المقارنة بينه وبين عمر الذى حفظ الدهر لنا شعره كله أو أكثره . والذى استقامت لنا اخباره وصحت لنا طائفة من الحوادث المتصلة بحياته فأصبح من اليسير أن ندرسه ونعلن رأيا صحيحا أو مقاربا . ومهما تكن مكانة جميل من شعراء البادية والحاضرة فليس من شك فى أن عمر بن أبى ربيعه كان مقدما عليه عند أهل عصره ويجب أن يظل مقدما عليه من الوجهة الفنية . لأنا لا نعرف شاعرا عربيا أمويا افتن

فى الغزل افتنان عمر . فعمر اذن زعيم الغزلين الامويين جميعا لا نستثنى منهم احدا ولا نفرق فيهم بين اهل البادية وأهل الحاضرة . بل نحن نذهب الى أبعد من هذا فنزعم أن عمر بن أبى ربيعه زعيم الغزلين فى الادب العربى كله على اختلاف ظروفه وتباين أطواره منذ كان الشعر العربى الى الآن » وهذه الحقيقة التى يعلنها الدكتور طه حسين تقترب من المجازفة العملية وتتفق مع الآراء التى تلجأ الى التعميم وهى سمة بعض النقاد القدامى . ولا شك أن الاعجاب والتعاطف هو الذى يقود مثل هذه الأحكام المطلقة ولا يملك المعارضون لموقف الدكتور طه حسين كثيرا من الحجج لدحض رايه لأن عمر بن أبى ربيعه فى الواقع قد تجاوز بعذوبة شعره وصحة فهمه للشعر والمرأة على السواء كل شعراء عصره بل لقد استطاع أن يتجارب مع كل العصور وهو أقرب الى ذوقنا وسلوكنا من كل الشعراء الآخرين . وقد صور شعر عمر كما تصور هذه الغزليات التى اخترناها عددا هائلا من العلاقات الغرامية التى تبدو من خلال صدقه الفنى حقيقية على المستوى الواقعى . فأسماء الحبيبات فى شعره يتجاوز الأرقام القياسية لشعراء عصره والعصر الذى سبقه فهو يحب كل جميلة وهو يبدو صادقا فى حبه ولقد اثار هذا الموقف كثيرا من الجدل حول طبيعة عاطفة هذا الشاعر الذى ينتقل كالفراشة من زهرة نضرة الى زهرة اخرى اشد نضارة دون أن يرى فى ذلك غضاضة أو نوعا من التشكيك فى وفائه كان اخلاص عمر الحقيقى للجمال أينما وجده . كان الحب المطلق قضيته المطلقة ولم تكن امرأة واحدة بقادرة على صرفه عن هذا الهوى العنيف الجارف لكل امرأة جميلة أخرى : ولقد اتهم عمر بالنرجسية فى غرام ذاته والولع بنفسه حتى ليظن قارىء شعره أنه كثيرا ما كان يتغزل فى نفسه بدل التغزل فى المرأة ولكن الدكتور طه حسين يرى فى هذا الولع بالذات تجاوبا مع تهافت النساء عليه وولعهن به يقول الدكتور طه حسين :

« لم يكن عمر مغرورا ولا تباهيا . كما أنه لم يكن كاذب الحب ولا متكلفه وانما كان صادقا الحب حقا قويا أيضا ستقول . فكيف يلائم ذلك ما زعمت من أنه كان عذريا ولم يكن يذهب مذهب جميل ؟ بل كيف يلائم ذلك ما ذكرت من أنه كان يتابع النساء جميعا بحبه لا يكاد يدع امرأة الا ليعرض لأخرى وربما اشتغلت نفسه فى وقت واحد بغير امرأة ؟ كان هذا كله حقا وكان عمر بن أبى ربيعة مع ذلك صادقا الحب قويه أيضا . ذلك لأنه لم يكن عذريا . لم يكن يحب بعقله ولا بقلبه وانما كان يحب بحسه وبحسه ليس غير كما قلت آنفا لم يكن حسه يطيع قلبه فيرى الجمال فى عشيقته ويميل اليها وانما كان قلبه طوع حسه فكان يكفى أن يرى جمال المرأة ليخلع عليها ما شاء له الشعر من الصور الرائعة الخلابة . وليجد بها ما شاء له الحب من وجد لا حد له . كان عمر يرى كلما أحب امرأة أنه لم يحب قط امرأة كما أحبها وانه لن يسلو عنها مهما تتبدل الأحوال وتختلف صروف الحياة . وكان صادقا فى هذا كله . ولكنه لم يلبث أن يقول هذا الشعر حتى يحب امرأة جديدة حبا ليس له بمثله عهد ولن يكون له بمثله عهد ولن يجد سبيلا الى الانصراف

عنه . ومصدر هذا أن قلبه كما قلت يتبع حسه وأن النساء كن مفتونات به فكان لا يكاد يقف عند مظهر من مظاهر الجمال حتى يخلبه مظهر آخر . وكان لا يكاد يسمع ثناء امرأة حتى يستهويه ثناء امرأة أخرى فكان طمعه متصلا وأمله لا حد له .

يتضح من الغزلية الأولى « هند » مذهب عمر بن أبى ربيعة كاملا فى الصياغة الشعرية فهو يعمد الى اختيار أرق الألفاظ وأسهلها وأجملها أيضا ليصور بها تجربته الشعرية التى تتخذ من المرأة محورها . كما أنه ابتكر فن الحوار مما جعل القصيدة تتدفق حيوية وتتخذ طريقا الى النمو المستمر بحيث نستطيع أن نقول أن البناء الدرامى هو من أبرز خصائص شعر ابن ربيعه . انه لا يفرض مشاعره الخاصة على الموقف وانما هو يعرض الموقف كله كاملا امامك لتتأثر به كما تشاء وتفسره كما تهوى فهو بهذا يعد أقرب الشعراء الى المفهوم العصرى للشعر فلا تستطيع أن تقول أنه شاعر رومانسى يجعل من شعره صورة لهمومه الذاتية بل هو شاعر واقعى يجعل من شعره مرآة بارعة نعكس صورة المرأة العربية وبيئتها ويكشف بخياله الخصب عالم هذه المراة وخصائصها وحيلها ودهاءها وافتتانها به أيضا . انه أول شاعر يواجه المرأة بحقيقة مشاعرها ولذا فقد نال اعجابها لأنه فهمها ونطق بهذا الفهم . فهذه الصورة المألوفة التى تصورها القصيدة الأولى تعكس خبرة حقيقية بعالم النساء . فها هن يجتمعن معا ولا يكون لهن من حديث الا الحب والهوى . وتسأل هند اترابها عن محاسنها كما يصفها الشاعر وتريد أن تستوثق أن هذا الوصف الجميل وصف صادق وحقيقى لتطمئن نفسها الى جمالها ويكون لها الحق فى الفخر بهذا الغزل الذى يوجهه لها عمر بن أبى ربيعه . والحبيبة تبدو ساذجة لأنها لا تدرك أن مشاعر النساء يغلب عليها الحسد . هى تسألهن هل هى جميلة حقا كما يصفها عمر . ولكن النسوة يتضاحكن ويقلن لها ان الحب هو الذى يجمل المحبوب « حسن فى كل عين من تود » أى أن حسنها هو حسن خاص لا يراه الا عمر وليس حسنا موضوعيا يراه الجميع وقبل أن تفجع هند بهذا الرأى يكشف لها عمر عن خبيئة أسرار هؤلاء النسوة فيقول لها أن الحسد هو الذى دفعن الى هذا الانتقاص من جمالها .

حسد حملنه من شأنها وقديما كان فى الناس الحسد

ثم استمر الشاعر فى وصفها بهذه الاوصاف الحسية المؤثرة التى يعرفها البدوى والحضرى على السواء فهى باردة فى القيظ وساخنة فى البرد فيالها من متعة رائعة تمنحها له الحبيبة . والشاعر فى هذه القصيدة يستخدم أسلوبا عصريا تستخدمه القصة والشعر والمسرح والسينما فى عصرنا أيضا فهو يعود الى الماضى ليلتقط منه المشاهد التى تساعد على تطور الحركة الدرامية ونموها ولذا نراه فى الختام يعود الى الموقف الاول عندما تعرف عليها وحاول أن يؤكد لها قرابة أهله من أهلها والصداقة التى تربط الاسرتين وكأنه يحتال بتلك الحيلة للحصول على

رضـــــاها طمأننهـــا من ناحيــــة أخرى . ثم يختتم قصــــيدته بهذا اللهو العابث الذى بدأ به القصــيدة وهو طلب موعد معها ومراوغتهـــا فى ذلك .

كلمـــا قلــت متى ميعــــــادنا ضحكت هنــد وقالت بعــد غــد

وكما قال الشاعر فهى دائما مخلفة للوعد . انك تخرج من القصيدة بمتعة حسية تروح عن نفسك فهو لا يبكى ولا يتأوه لانها اخلفت وعده لانه يعــرف أنها لابد أن تجىء فى النهــاية وان هــذا دلال المرأة الطبيعى . انــه اذن شــاعر يتميــز أســاسا بفهمــه العميق لطبيعــة المــرأة ودلالها ومراوغتها وأنها تحب هذا اللهو منه وهذا العبث ولذا كان الاعجاب به عظيمــا .

أما الغزلية الثانية فقد كرسها الشاعر للوصف وان كان الشاعر لم ينس أن يعبر عن مشاعره أيضا حين يقول أن وجده بها كوجدك بالمــاء البارد ولا ينسى الشاعر أن يدير حوارا بينه وبين صاحبه وبينها وبين جاريتها وها هو يصف عظيم حبه لها حين يقول .

ثم قالــوا تحبهــا ؟ قلت بهـــرا عــدد النجم والحصى والتــــراب

ان القتول هنا محجوبة الى حد ما وهى لا ترى الا محاطة بالحسان اترابها والشاعر مولع بتصوير مجتمعات النساء حيث يتيح هذا فرصة لنمو الحركة الدرامية أكبر ويكون الكشف عن مكنون اسرارهن اعظم لان النساء اذا اجتمعن تصارحن . أما الغزلية الثالثة فهى تتحدث عن دفاع الشاعر عن نفسه أمام عذاله . وقد نصحته قريبة له بان يترك هذا الحب خوف المقال وخوف الكاشح الاشر فاذا به يفصح عن اصراره وعزمــه على التمسك الشديد بهذا الحب وهنــا نلتفت الى معنى جديد تماما . فالناصحة له تصور حبه كسكرة ينبغى أن يفيق منها ودلالة هذا المعنى أنه ربما وقع فى هذا الحب دون وعى منه . وهى تشير بهذا أو توصى بأنه مجرد وهم عليه أنيتركه ولكن الشاعر ينتفض بعد أن فهم المعنى فيؤكد أن هـــذا الحب قد أتاه وهــو فى قمــة اليقظـــة والوعى والفهم فهــو حب اليقظـــة التامة ومعنــــاه أنه حقيقى الى أبعـــد الحدود لانه يعرف بوعيــه مزايا هذه الحبيبـــة وحقيقة جمالها فما أجمل قول الشاعر :

قالت قريبــة لمـــا طال بى ســـقمى — وأنــكرت بى انتقاص السمع والبصر
يا ليتنى افتدى ما تهيــم بــــه — ببعض لحمى وبعض النقص من عمرى
قـــد يعلق القلــب حبـــا ثم يتــركه — خــوف المقال وخوف الكاشح الاشر
دع حبها وتنــاسى الحب تلق به — واصــبر ولكن كصريع تام من ســـكر
فقلت قــولا مصيبا غير ذى خطــل — اتى بـــه حبهـــا فى فطنـــة الفــكر
سمعى وطرفى حليفاها على جسدى — فكيف أصبر عن سمعى وعن بصـــرى

وربما كانت أوصاف عمر للمرأة أوصافا خارجية حسـية ولكنها فى الواقع تعكس حرارة قوية تعكس صدقا نفسيا وفنيا يتأكد فى هذه الصـياغة الشعرية الرفيعة وفى هذا الاحساس العميق بمشاعر المرأة وصبواتها ونزواتها .

لقد كانت خبرة الشاعر بمعالم النساء وفهمه لنفسيتها ودرايتـه العظيمة بالشعر كانت كل هذه العناصر سببا فى هذا التوفيق التى لاقاه معهن واعجابهن الشديد به . ولقد كان لعمر بن أبى ربيعة أسـلوب جديد ومنهج مبتكر عرف به ومنحـه لتراث الشـعر العربى وللأجيال اللاحقـة له . فكان فتحا جديدا فى عـالم الشـعر وفى عالم فهـم للمرأة على السواء وبهذا فقد كان حظه العظيم من الحب والاعجاب عادلا على الدوام .



« فى الحب »

للعباس بن الاحنف

القصـــيدة

غضـــب الحبيب فهــــاج لى اســتعبار
واللــــــه لى ممـــا احـــاذر جـــار
كنـــا نغـــايظ بالوصـــال معـــاشرا
لهم الغـــــداة بصر منـــا اســـتبشار
اذ لا أرى شـــــكلا يـــكون كشـــكلنا
حســــنا ويجمعنـــا هنــاك جـــوار
وكأننـــــا لـــم نجتمـــع فى مجلـــس
فيــــه الغنـــاء ونرجس وبهــــار
مـــا كـــان اشـــأم مجلســـا كنـــابه
تلك العشــــية والعـــدا حضـــــار
مدنيــــــة امس العـــــراق محلهـــــا
ولهـــــا بـــزوراء المدينــــــة دار
أدنـــــى قرابتنـــــا اليهـــا اننـــا
شخصــــــان يجمعنـــــا اليـــه نزار
يـــا أيهـــا الـــرجل المعـــذب قلبــــه
اقصـــر فـــان شـــــفاءك الاقصـــــار
نـــزف البـــكاء دمـــوع عينـــك فاســـتعر
عينـــــا لغــــيرك دمعهـــا مـــدرار
من ذا يعــــيرك عينــــه تبــــكى بهـــا ؟
أرايت عينـــــا للبـــــكاء تعـــــار
الحــــب أول مــــا يـــــكون لجاجــــة
تـــأتى بــــه وتســــوقه الاقـــــدار
حتى اذا اقتحـــم الفتى لجــــج الهـــوى
جـــاءت امـــور لا تطـــاق كبـــــار
واذا نظـــــرت الى المحـــب عرفتـــه
وبـــدت عليـــه من الهـــوى آثـــــار
قـــل مـــا بـــدا لـــك أن تقـــول فربمـــا
ســـاق البـــلاء الى الفتى المقـــدار
يا فـــوز هـــل لـــك أن تعـــودى للـــذى
كنـــا عليـــه منـــذ نحن صـــغار
فلقـــد خصصـــتك بالهـــوى وصرفتـــه
عمـــن يحـــدث عنـــكم ويغـــار

هـــل تذكـــرين بـــدار بـــكر لهـــونا
ولنـــــا بـــذاك مخافـــــة وحـــــــذار
متطـــاعمين بريقنـــــــا فى خلـــــوة
مثـــل الفـــراخ تزقهـــا الاطيـــــــار
أم تذكـــــــــرين لـــدجلتى متنـــــكرا
وعـــــلى فـــــروا عـــــائق وخمـــــــار
فـــــوددت ان الليـــــل دام وأنـــــه
ذهب النهـــــــار فـــلا يـــكون نهـــــار
أفمـــا لذلـــك حـــــرمة محفـــوظة
أف لمـــــن هـــــو قاطـــع غـــــــدار
ســــأقر بالذنب الـــــذى لم اجنـــــه
ان كـــان ينفـــع عنـــــدك الاقـــــرار
مـــا تأمـــرين فدتـــك نفسى فى فـــتى
مـــــا تلتقى لجفـــــونه اشـــــــفار
من كـــان يبغضـــكم فبـــــات مبيتـــــه
ان الهـــــوى لـــذوى الهـــــوى ضــــرار
صـــــرم الاحبـــــة حبـــله فـــكأنـــه
اذ غـــادروه وضـــــــره الاضـــــــرار
رجـــــــل تطاول ســــــقمه فى غـــربة
نـــزحت بـــه عـــن اهـــله الاســـــفار
لا يســــــتطيع من الضـــــرورة حيـــلة
أمســـى يـــرجم دونـــــــه الاخبـــــــار
حتى أتيـــــح لـــــــه وذاك لحينـــــــه
ركـــب رمت بهـــم الفجــــــاج تجـــــار
حمــــــلوه بينهـــم نحيـــــــلا جســـــمه
عـــارى العظـــــام ثيـــــابه أطمـــــــار
فثـــوى تقلبـــــه الاكـــــف ملففـــــا
ولـــه تشـــــد وتوضـــــع الاكـــــــوار
حتى اذا ســـــــــلكوا بـــه فى مهمـــــه
قفـــــر تضـــل بـــه القطـــا وتحـــــار
غرضـــوا من النضـــو النحيـــل فعطـــلوا
منـــــه الـــركاب وخلفــــوه وســــــاروا

***

هذه القصيدة واحدة من أعذب شـــعر العباس بن الاحنف مع أن معظم أشعاره عذبة رقيقة تخالط النفس فتبهجها ورغم حزنها فهى تسرى عن الحزين . عرف العباس بالولع الشديد بالجمال ولكنه ولع يختلف عن غيره من الغزلين أمثال عمر بن أبى ربيعة وأبى نواس والاحوص وغيرهم فلم يكن متقلبا فى حبه رغم أنه ذكر أسماء بعض النساء غـــير فوز التى عرف بهـــا فقـــد ورد فى شـــعره ذكر ظلوم وذلفـــاء ونرجس ونسرين

وسحر وضياء وربما كانت هذه الاسماء كلها أقنعة لفوز نفسها التى حظيت بمعظم شعره . وحتى فوز هذه انما هى الاخرى قناع لامرأة بغدادية أحبها العباس بن الاحنف ومنعه العرف الاجتماعى وأسباب كثيرة أخرى من التصريح بها . ولقد اشتهر العباس بن الاحنف بالعفة فى الغزل كما يقول مؤرخو حياته ومنهم صاحب الاغانى حيث يقول « وكان العباس شاعرا غزلا ظريفا ومطبوعا من شعراء الدولة العباسية وله مذهب حسن ولديباجة شعره رونق . ولمعانيه عذوبة ولطف ولم يكن يتجاوز الغزل الى مديح ولا هجاء ، ولا يتصرف فى شىء من هذه المعانى وقدمه ابو العباس فى كتابه الروضة على نظرائه وأطنب فى وصفه وقال رأيت جماعة من الرواة للشعر يقدمونه قال وكان العباس من الظرفاء ولم يكن من الخلعاء وكان غزلا ولم يكن فاسقا وكان ظاهر النعمة ملوكى المذهب شديد التترف « من الترف » وذلك بين فى شعره وكان قصده الغزل وشغله النسيب وكان حلوا مقبولا غزلا غزير الفكر واسع الكلام كثيرا التصرف فى الغزل وحده ولم يكن هجاء ولا مداحا » . وواضح من هذا النص الذى أورده صاحب الاغانى أن العباس كان من شعراء الطبع لا من شعراء الصنعة له منهج شعرى متميز يروق لاهل عصره يجعل لشعره بها ولالفاظه عذوبة وأنه كان ينتمى من الناحية الاجتماعية الى الطبقة الراقية التى يصرفها الغنى عن التماس الكسب من الوجوه التى كان يعرفها الشعراء فى ذلك العصر . فلم يكن العباس فى حاجة الى مدح ولا الى هجاء ذلك أنه كان مترفا لديه ما يدنيه شأنه شأن غيره من عشاق الشعراء الذين كان لهم من رفعة المكانة الاجتماعية ووفرة المال ما يدفعهم الى التفرغ للحب والشعر مثل عمر بن أبى ربيعة على بعد ما بينهما فى الاسلوب الشعرى ومنهج الاداء وطبيعة التكوين ويبدو أنه كان وسيما لبقا محبوبا من الناس كانوا يقولون عنه « كان والله ممن اذا تكلم لم يحب سامعه أن يسكت وكان فصيحا جميلا ظريفا اللسان لو شئت أن تقول كلامه كله شعر لقلت » واذا كانت هذه هى خصال الشاعر فانها كانت الخصال الضرورية لنجاح شاعر فى بغداد وفى عصر الرشيد . لقد تهيأت له كل المواهب التى ترشحه شاعر الطبقة المترفة اللاهية وكان أحرى به أن يكون متقلبا فى حبه استجابة للاقبال عليه نظرا لصفاته ولكنه كان عفيفا أحب امرأة واحدة وأبدع فى التشبيب بها كل شعره تقريبا فهو اذن قد خرج على سنة غيره من الشعراء ممن وهبوا مثل ما وهب فهل كان ذلك لضعف فيه أم لقوة اخلاقية وما تعليل هذه العفة التى تصرح بها معظم أبيات شعره فى عصر احتفى بالمجون واللهون والغزل الحسى والغناء ومجالس الطرب يرى الدكتور زكى مبارك ان عفة العباس لم تكن علامة ضعف حيث يقول « المعروف علميا أن الشهوة قوة لانها اقتحام وانتهاب وان العفاف ضعف لانه زهد وانسحاب والعاشق المنتهب أقوى شعورا من العاشق المنسحب فهو بذلك أقدر على الغزل الساحر والتشبيب الفتان فكيف نعد العفاف من مزايا الشاعر أو العاشق .. افترع الحقيقة فأقول : ان العفاف لا يكون من علائم الضعف الا ان كان عفاف العاجزين

وانه يكون أعظم قوة حين يصدر عن الرغبة فى التصون ومن حق الرجل ان يجاهد هواه ليضاف الى الاشراف وتلك غاية يتطلع اليها أكابر الفتيان ومن هنا تظهر قيمة الصدق العذب فى هذين البيتين :

أتاذنون لصب فى زيارتكم
فعندكم شهوات السمع والبصر
لا يضمر السوء ان طال الجلوس به
عف الضمير ولكن فاسق النظر

هذه عذوبة الصدق . وهى نهاية السمو الخلقى فالعشق الذى يصدر عن النظر غير دنس وهو ليس بآثم عند ضمان عفة الضمير . وان العباس فصل فى قضية اخلاقية كانت فى جميع العهود مما يشغل رجال الاخلاق والمهم هو النص على أن عفاف هذا العاشق عفاف أوحت به نية صحيحة والنيات الصحاح هى الاصل فى التماسك الاخلاقى وبدونها لا يقوم للاخلاق بنيان » اذن فالعباس لم يكن ضعيفا والا لما قاوم غرائزه وأغلب الظن أن العصور التى تموج بالتيارات الحسية وجد فيها اللهو مرتعا فسيحا للنزوات البريئة وغير البريئة كثيرا ما نطرح الجانب الاخر المضاد للمزاج السائد فرغم غلبة مزاج أبى نواس على عصر الرشيد فقد كان هذا العصر فى حاجة الى توازن لا يقيمه الا ظهور مزاج مضاد . وتلك مزية هامة للعصور الذهبية التى تسمح دائما بوجهة النظر الاخرى نظرا لان العصر نفسه يتسع حضاريا ويتعمق كلما تنوعت داخله الانماط الانسانية والسلوكية والابداعية لقد جاء العباس بن الاحنف ليواجه مزاج أبى نواس وأمثاله ولان العباس كان من طبقة غنية مترفة فقد جاء سليلها غنى النفس وليست هذه قاعدة بالطبع ولكن المعروف عن هذه الطبقة فى عصر الرشيد أنها كانت تعنى أتم العناية بتعليم وتهذيب أبنائها رغم أن العباس ابن الاحنف لم يسلم من المتزمتين فى عصره الذين رأوا فى نجاح شعره نوعا من الفتنة للشباب والفتيات والحقيقة أنه بدون شعر العباس ابن الاحنف لكانت لوحة الحياة الاجتماعية والفنية فى العصر العباسى الاول شديدة النقص والاختلال ، فقد كان شعره أرق من شعر غيره وأعذب وقد رشحته هذه الرقة والعذوبة للغناء والعصر العباسى كان عصر غناء وطرب فقد زود الموسيقيين والمطربين بأغانيهم الجميلة التى كانت فى الوقت نفسه لا تجاهر بالخروج على مواضعات المجتمع وتقاليده وكثيرا ما كان هذا الشعر ينشد فى المجالس على شفاه المغنيين والمغنيات كما كان يستخدم فى المصالحات والمعاتبات بين العشاق ثم أن هذا الشعر قد جاء ليقف فى المنتصف بين شعر الزهد الذى اشتهر به أبو العتاهية وبين شعر الحس الذى اشتهر به بشار بن برد وأبو نواس فهو واسطة بين طرفين تباعد ما بينهما ولهذا استقبلته الاذواق احسن الاستقبال . واذا كان العباس لم يسخر شعره للتكسب فقد جلب عليه هذا الشعر الكثير من الاعجاب والحب وبعض الهدايا أيضا واذا كان العباس بن الاحنف قد وقف شعره على الغزل فقد

راى البعض فى ذلك فقــرا فى افانينه الشعرية ولكن الحقيقة ان تخصصه لم يمنعه من التفنن فى الموضوع الاثير لديه وهو الحب وان هذا القول الذى يزعم بأن عدم تنوع الموضوع يحرمه من الاجادة يشبه من يقول بأن من يخلص حبه لامرأة واحدة فقد حرم متعة الحب .

ان تجربة الشاعر الاساسية غالبا ما تكون تجربة واحدة تتفرع الى محاور جانبية ولم يقل أحد بأن العبرة بتنوع التجربة مادامت التجربة الفنية بالغــة النضج والعمق والعذوبة وهى سمات أساسية فى شعر العباس ابن الاحنف ـــ اذا تأملنا هذه القصيدة التى تحمل فى الديوان عنــوانا مختلفا هو « اتعار عين البــكاء ؟ » والتى اخترنا لها الحب عنــوانا لانه اصبح دلالة مراده اذا تأملنـــــا هــذه القصــيدة بهرتنا هـــذه العذوبة التى تفيض بهـــا الفاظها وان كانت البــداية تحمل لنا صــورة من الغضب والخـــوف دفعا بالشـــاعر الى أن يستجير بالله من غضب حبيبه . وخوف الحبيب الــذى يصــل الى حد الجزع والهلع من غضب حبيبه يطلعنـــــا على مــدى ما تــكنه جوانحــه لهـــذا الحبيب انه الحب العظيم الذى يخشى عليـــــه من الهجــر ولعــل هذا يذكرنا بالبيت الذى يقــول :

اهابــك اجــــــلالا ومـــا بــك قــــــدرة
على ولــكن مـــــلء عــــين حبيبهـــــــا

هو خوف الحريص لا خوف النافر الكاره . يرسم الشاعر صــورة لشماتة حســـاده فيــــه بعد أن كان يغيظهم بالوصل وأراد الشـــاعر انه لم يكن يســـلم من مضايقتهم له أيضا وذلك باســـتعمال لفظ «يغايظ» التى تدل على المفاعلة ويبــدو أن الغضب قد حــدث أثنــاء جلوسهم مع بعض حســـادهم الذين ربما أوقعــوا بينهم فهـــا هـــو يتشاءم من هذا المجلس الذى كان فيه ويبدو أن الشاعر قــد عانى بسبب خوفه على حبيبه عذابا واهوالا وكأنه أصبح يشفق على نفســـه بعــد أن كان يشفق من هجر الحبيب فنراه يخاطب نفسه خطابا جهيرا يستخدم هذه الكلمة الشديدة الدلالة على النداء والتنبيه « يا أيها » كان ينادى شخصا بعيدا عنه وهذا يعنى أنه كان ذاهلا عن التفكير بالجزع الذى أصـــابه فاستخدم أداة قوية ليجذب وعيه الى التدبر فى الامر . وها هو يستخدم مرة أخرى فعل الامر « اقصر » بلهجة قاطعـــة تتلوها جملة تقـــريرية مباشرة اقرب الى النثر لانه يخاطب بها العقل فهى كلمة قاطعة صـــارمة « ان شفاءك الاقصار » ثم عدل عن فعل الامر الى رســـم صـــــورة مؤثرة تبدأ بالفعل الماضى « نزف » وهى كلمة توحى بنفاذ الدمع وبــدء انسكاب الدماء انه بعد أن يرسم الصورة يوحى لنا بنوع من الســـخرية الخفيفة امام اصراره على البكاء . ان كنت مصرا على البــكاء فان عينك لم تعد تصلح لذلك فاستعر عينا لغـــيرك تكون كثـــيرة الدموع ـــ يا لها من سخرية موجعة تأتى بنا الى اجمل أبيات القصيدة وكأنه بهذا الاستفهام

الانكارى ينبهه الى السخرية السوداء التى يوجهها نحوه وكأنه يريد أن يوقظ عقله مرة أخرى ليتدبر ما هو فيه فيقول :

من ذا يعيرك عينه تبكى بها
أرأيت عينا للبكاء تعار

انه يفترض أن المخاطب قد صدقه وانه سوف يستعير عينا يبكى بها فيباغته بهذا الاستفهام الانكارى الذى يهدف الى التوبيخ والزجر . ثم بدأ يصف الحب ليكشفه لعينه وكأنه لا يعرفه .. ان الشاعر يجرد من نفسه شخصا آخر يتوجه له بالنصح ولكنه ما يلبث أن يضيق بهذه اللعبة التى لا جدوى من الاستمرار فيها فيتجه الى فوز محبوبته يحاول أن يستميلها اليه بدلا من محاولة الاقلاع عن حبها وهى محاولة يعرف هو قبل ناصحه فشلها . هو يذكرها بأسعد الايام « أيام الطفولة » وأكثرها فتنة ويستعير من عالم الطير صورة الشعرية .

متطاعمين بريقنا فى خلوة
مثل الفراخ تزقها الاطيار

وما أجمل هذه الامنية التى يعلنها الشاعر كما أعلنها قبله كل الشعراء انها أمنية دوام الليل الذى يجمع العشاق وغياب النهار الذى يفرقهم .

فوددت أن الليل دام وانه
ذهب النهار فلا يكون نهار

انه لا يرجو غياب نهار واحد بل يتمنى غياب جنس النهار كله وبعد أن يمعن فى عرض الصور الجميلة يبدأ فى العتاب ثم يصل الى الاقرار بالذنب ويظل فى خضوعه الى أن يضع نفسه فى خدمتها . الى أن يأتى الى نهاية القصيدة فيجسد لنا صورة بالغة الهول والوحشة تزلزل الكيان انها صورة يضمنها ما بداخله من احساس قوى بفقد انها وكأنها بتخليها عن حبها له تشبه ذلك المريض الذى ثقل على رفاقه فى الطريق فأخذوا منه راحلته وتركوه فى الفلاة وحيدا لانهم يئسوا من شفائه . وكأنه يقول لها انها تشبه هؤلاء الرفاق الذين تركوا رفيقهم للموت وبهذه النهاية تصل القصيدة الى قمة الاستعطاف وقمة الاستغفار لهذا الذنب الذى جلب عليه الغضب . هذا هو العباس بن الاحنف لا يدل بشاعريته ولا بوسامته ولا بجاهه الاجتماعى وترفه على حبيبته وانما هو عاشق يخضع لقانون الحب وسلطانه يكون حيث شاء له الهوى أن يكون يحمل شعره كل خصائصه النفسية وتكوينه الروحى الذى جعله يذوب رقة ونحولا . واذا كان قد أخلص حبه لامرأة من النساء فقد جاء شعره هو الاخر مرآة لهذا الاخلاص العميق الذى يندر حدوثه معبرا عن شاعرية نادرة الوجود .

« ته دلالا فانت أهـــل لذاكا »

للشاعر الصوفى عمر بن الفارض

القصـــــيدة

تـــه دلالا فانت اهـــل لذاكـــا ... وتحـكم فالحسن قـد أعطـــاكا
ولــك الامـر فاقض ما أنــت قاض ... فعـــلى الجمـــال قـــد ولاكا
وتـلافى ان كـان فيـــه ائتلافى ... بك عجـــل بــه جعلت فـداكا
وبما شـئت فى هــواك اختبرنى ... فاختيـــارى ما كـان فيـه رضاكا
فعــلى كـل حالــة انت مـــنى ... بى اولى اذ لـــم أكـــن لولاكا
وكفـــانى عــزا بحبــك ذلــى ... وخضـــوعى ولست من اكفاكـــا
واذا مـــا اليــك بالوصـل عـزت ... نســـبتى عـــزة وصـح ولاكـا
فاتهـــامى بالحب حســبى وانــى ... بـين قومـى اعـــد من قتلاكا
لــك فى الحى هالــك بـك حــى ... فى سبيل الهوى اسـتلذ الهلاكا
عبـــد رق مارق يوما لعتـــق ... لــو تخليت عنـــه ما خـلاكا
بجمـــال حجبتـــه بجـــلال ... هام واسـتعذب العـــذاب هناكا
واذا مـــا امن الرجـــا منــه ادنـــا ... ك فعنـــه خـوف الحجى اقصاكا
فبانتـــدام رغبـــة حـين يغشــا ... ك باحجـــام رهبـــة يخشاكا
ذاب قلبى فـأذن لــــه يتمنـــا ... ك وفيـــه بقيـــة برجـــالكا
أو مــر الغمض أن يمــر بجفنى ... فـكأنى بــه مطيعـا عصـــاكا
فعسى فى المنـــام يعـــرض لى الو ... هم فيـــوحى سرا الى ســـراكا
واذا لـم تنعـش بـروح التمنى ... رمقى واقتضـى فنـــائى بقـــاكا
وحمت ســـنة الهوى سنة الغمض ... جفـــونى وحـــرمت لقيـــاكا
أبق لـى مقـــلة لعــلى يومـــا ... قبـــل موتى أرى بهـــا من رآكـــا
أين منى ما رمت هيهـــات بل اين ... لعينـــى بالجفـــن لثم تـــراكا
فبشــيرى لـو جـاء منـك بعطف ... ووجـودى فى قبضـتى قلت هاكـــا
قـد كفى مـــا جرى دمـــا من جفون ... بـك قرحى فهل جـــرى ما كفـاكا
فأجـــر من قــلاك فيـك معنى ... قبـل أن يعـرف الهـــوى بهواكا
هبــك أن الـــلاحى نهـــاه بجهل ... عنك قـل لى عن وصـــله من نهاكا
والى عشـــقك الجمـــال دعاه ... فالى هجـــره تـرى من دعـاكا
أتـرى من افتنــاك بالصـــدعنى ... ولغـــيرى بالـــود من افتـــاكا
بانكســـارى بـذلتى بخضـوعى ... بافتقـــارى بفـاقتى بغنـــاكا
لا تـكلنى الى قـــوى جلد خان ... فـــانى اصـــبحت من ضـــعفاكا
كنت تجفـــو وكان لى بعض صبر ... احسن اللـــه فى اصطبارى عزاكا
كم صـــدودا عســاك ترحم شـكوا ... ى ولو باستماع قـولى عســـاكا
شـــنع المرجفون عنـك بهجـرى ... واشـاعوا انى سـلوت هواكـــا
ما بأحشـائهم عشـــقت فأسـلو ... عنـك يومـــا دع يهجروا حاشاكا

كيف اسلو ومقلتى كلما لاح — بريق تلفتت للقاكا
ان تبسمت تحت ضوء لثام — او تنسمت الريح من انباكا
طبت نفسا اذ لاح صبح ثنايا — ك لعينى وفاح طيب شذاكا
كل من فى حماك يهواك لكن — انا وحدى بكل من فى حماكا
فيك معنى حلاك فى عين عقلى — وبه ناظرى معنى حلاكا
فقت اهل الجمال حسنا وحسنى — فبهم فاقة الى معناكا
يحشر العاشقون تحت لوائى — وجميع الملاح تحت لواكا
ما ثنانى عنك الضنى فبماذا — يا مليح الدلال عنى ثناكا
لك قرب منى ببعدك عنى — وحنو وجدته فى جفاكا
علم الشوق مقلتى سهر الليل — فصارت من غير نوم تراكا
حبذا ليلة بها صدت اسرا — ك وكان السهاد لى اشراكا
ناب بدر التمام طيف محيا — ك لطرفى بيقظتى اذ حكاكا
فتراءيت فى سواك لعين — بك قرت وما رايت سواكا
وكذاك الخليل قلب قبلى — طرفه حين راقب الافلاكا
فالدياجى لنا بك الان غر — حيث اهديت لى هدى من ثناكا
ومتى غبت ظاهرا عن عيانى — الفه نحو باطنى القاكا
اهل بدر ركب سريت بليل — فيه بل سار فى نهار ضياكا
واقتباس الانوار من ظاهرى غير — عجيب وباطنى مأواكا
يعبق المسك حيثما ذكر اسمى — منذ ناديتنى اقبل فاكا
ويضوع العبير فى كل ناد — وهو ذكر معبر عن شذاكا
قال لى حسن كل شىء تجلى — بى تملى فقلت قصدى وراكا
لى حبيب اراك فيه معنى — غر غيرى وفيه معنى اراكا
ان تولى على النفوس تولى — او تجلى يستعبد النساكا
فيه عوضت عن هداى ضلالا — ورشادى غيا وسترى انتهاكا
وحد القلب حبه فالتفاتى — لك شرك ولا ارى الاشراكا
يا اخا العذل فى من الحسن مثلى — هام وجدا به عدمت اخاكا
لو رايت الذى سبانى فيه — من جمال ولن تراه سباكا
ومتى لاح لى اغتفرت سهادى — ولعينى قلت هذا بذاكا

***

ـ شاعر هذه القصيدة هو سلطان العاشقين أبو حفص عمر بن الحسن على بن المرشد بن على ويعرف بابن الفارض وينعت بشرف الدين ولد عام ٥٧٦ هـ بمدينة القاهرة وتوفى بها عام ٦٣٢ هـ نشأ نشأة صوفية دينية فى كنف والده ابن الفارض الذى كان أحد كبار علماء الدين فى عصره ، وقد ولى مناصب هامة متعددة منها نيابة الحكم وعرض عليه منصب قاضى القضاة ولكن والد الشاعر رفض هذا المنصب الخطير وآثر عليه التصوف والتعبد لله بقاعة الخطابة بالجامع الازهر وظل كذلك الى أن ادركته الوفاة وكان والد الشاعر وافدا من حماة الى مصر . وفى ظل مثل هذا الاب الزاهد كانت البيئة الاولى التى بثت فى وجدان الشاعر حب الله والزهد فى متاع هذه الدنيا وينقل الدكتور محمد

مصطفى حلمى عن ابن العماد فى كتابه شذرات الذهب صورة لهـــذه النشاه الاولى فيقول:«نشأ تحت كنف ابيه فى عفاف وصيانه وعباده وديانة بل زهد وقناعه وورع أسدل عليه لباسه وقناعه فلما شب وترعرع اشتغل بفقه الشافعية واخذ الحديث عن ابن عساكر وعن الحافظ المندرى وغيره ثم حبب اليه الخلاء وسلوك طريق الصوفيه فتزهد وتجرد وصـــار يستأذن أباه فى السياحة فى الجبل الثانى من المقطم وياوى الى بعض اوديته مره وفى بعض المساجد المهجورة فى خرابات القرافه مرة ثم يعود الى والده فيقيم عنده مدة ثم يشتاق الى التجرد ويعود الى الجبل وهكذا حتى الف الوحشـــة والفه الوحش فصار لا ينفر منه ومـــع ذلك لم يفتح عليه بشيء حتى اخبره شيخه البقال انه انما يفتح عليه بمكه فخرج فورا فى غير اشهر الحج داهبا الى مكة فلم تزل الكعبة امامه حتى دخلها »
وتروى كتب تاريخ الادب أن ابن الفارض قد رحل الى مكه لكى يفتح الله عليه كما نصحه شيخه البقال . وفى مكة تسامت روحه الى افاق الصفاء الالهية وفتح الله عليه ومكث بها خمس عشرة سنه امتلأ فيهـــا قلبه بنور الحب الالهى . وتصاعد به عشقه للذات الالهية حتى أصبحت حاله غير أحوال الناس فقد عمرت قلبه البهجة واضائت روحه باشراق التجليات عليه كما قال فى هذه الفترة أجمل شعره والتقى بالسهرودى وكان لهذا اللقاء اثر كبير على فكره وشعره . « اقام ابن القاضى بالاراضى الحجازية حتى جاءه هاتف يدعوه للعودة الى مصر فعاد اليها ليحضر وفاه شيخه البقال عام ٦٢٩ هـ ثم لازم قاعة الخطابة بالازهر يحن الى أيامه بمكة عاكفا على العبادة والتقوى بعيدا عن المغريات والماديات الى أن وافاه أجله عام ٦٣٢ هـ . قضى معظم حياته فى ظل عصر الملك الكامل الذى ولى الملك بعد وفاة والده صلاح الدين الايوبى عام ٥٩٨ هـ . وكان ملكا محبا للشعر والشعراء والادب والادباء . وقد جهد هـــذا الملك فى تقريب ابن الفارض اليه وجذبه الى مجلسه ووصـــله بالعطايا والذهب ولكن عمر بن الفارض فر من هذه المغريات وآثر الزهد وصفاء النفس ولذة الفناء فى محبة الله .

هذه سيرة رجل تقترب به من المتصوفة والزهاد أكثر مما تقترب به من الشعراء ولكن قارىء شعره سيرى أنه أمام شاعر باذخ العظمة فى قوة الاداء الشعرى وعمق الموهبة وبلاغة التعبير وحرارة العاطفة واتساع الخيال مما يجعل الناقد مضطرا الى الحكم عليه بالشـــاعرية المطلقة ولا شك أن زهده وروحانية مشاعره قد امدت قصائده بهـــذا الوهج الذى ينبع من قلب العشاق الصادقين وصنعت من هذه الحرارة سبائك ذهبية تجلت فى صياغته الشعرية الآسرة . ولقد عرفت الاداب كلها هذا النمط الفريد من العشاق الذين ادخروا كل حبهم وعشـــقهم وشوقهم للذات الالهية فجاء شعرهم كما جاء شعر عمر بن الفـــارض غزير العطاء منيرا بالصفاء الشامل تلمع فى دقائقه جواهر الحـــكمة وما أعظم هذه الحكمة التى تأتى من الحب وما أعظم الحب الذى يتجرد من العارض الفانى ليتعلق بالباقى الخالد . يقول الدكتور محمـــد مصطفى

حلمى فى كتابه « ابن الفارض سلطان العاشـــــقين » كان ابن الفارض الصوفى شـــاعرا نجلت دقه حســـه ورقة نفسه ورهافه شـــعوره فى شعره كما نمثلت فى ذوقه ووجده فهو قد جمع فى شخصـــه بين نبعين صافيين ينهل منهما ويصدر عنهما احدهما نبع الوجد الروحى وثانيهما نبع الطبع الشعرى وهو قد اتخذ من الشعر اداه للتعبير عما تعاقب عليه من رياضات ومجاهدات وما عرض له من أذواق ومواجيد وما انتهى اليه من مكاشفات ومشاهدات ولا يكاد يصطنع النثر فى التعبـــير عن شىء من هذا كله أو بعضه عندما كان يقص قصه واقعة وقعت له او يعقب على كلام ألقى بين يديه أما ذات نفسه وأما حياته الروحية فيمـــا بينـــه وبين ربه ونفسه واما حبه الالهى الذى ظل طوال حياته مرتلا لانشودته ترتيلا جميلا ومسبحا فيه بجمال محبوبته تسبيحا طويلا فكل أولئك كان الشعر مراته المصورة له وادواته المعبرة عنه » .

والقصيدة التى نحن بصددها « ته دلالا فأنت أهل لذاكا » تجسد بصورة مثالية هذه العاطفة الغلابة التى ملكت على الشاعر عمر بن الفارض جوانب نفسه وقلبه وروحه فهى غزلية تفيض رقة وجمالا وفتنة من هذه الغزليات المتتابعة التى ينتظمها ديوان الشاعر . ولقـــد اختصر الشاعر حياته بكل ما اشتملت عليه أو امتدت اليه واشتاقت له فى جوهر واحد وعاطفة واحدة رآها جذر الوجود ونوره ومعناه وحقيقته والحكمة البالغة من خلقه هذه العاطفة هى « الحب » وحب عمر بن الفارض تجلى فى كل ماكتب من شعر وهو أعظم ما يكون تجليا فى هذه القصيدة الرائعة « ته دلالا » والقارىء العادى لهذه القصيدة يرى انها مثال يقترب من الكمال للصدق فى العاطفة وللاطار الغزلى فى الشعر . فهى تبـــــدو قصيدة غزلية من قصـــائد الغزل الانسانى . ولكن دراسة حياة الشاعر كما قدمنا هى التى تقدم البرهان على جوهر هذه الغزلية . أن بعض قصائد الشـاعر لا تكاد تفترق فى تصويرها لمظاهر العشـــق وعلامات الهوى عن قصائد الحب الانسانى ولكن سيرة الشاعر هى التى تنفى بشكل قاطع ابتعاد هذه القصائد عن ساحة الشعر الصوفى .

كان الشاعر يحمل روحا ترى الجمال فى كل ما خلق اللـــه . فالله هو مصدر الجمال وخالقه ، من هنا ترك الشاعر نفسه تسمو الى أفق من المحبة الالهية زالت عنده الفواصل والحدود والاشارات . واستغرق الشاعر فى جوهر عشـــقه غير عابىء بدلالات اللغـــة الانســـــانية التى يدرك هو قبل غيره عجزها عن تجسيد وتصوير ما هو فيه وما يحس به ويشـــعر .

من هنا كان همه الاول هو التعبير باللغة التى يملكها . كان غارقا من ظفره لرأسه فى الحب وأراد التعبير عن حبه فجاءت قصائده نابضة

بملامح التعبير الانسانى ولكنها مشحونة فياضة بوجده الالهى . كانت اللغه انسانيه ولكن دلالاتها تجاوزت ذلك الى آفاق اعلى من ذلك وأرحب واعمق . كان المتصوفة الاخرون مثل ابن عربى وغيره يصطنعون لغة خاصه ذات رموز كثيفة غامضه فى محاوله لخلق تعبير مطابق لاحوالهم . ولكن ابن الفارض حرج على هده القاعدة . كان يحيا وجدا خاصا به وحالة بالغة الخصوصية ولكنه كشاعر آآثر ان يستخدم لغة عامة هده اللغة التى فتنت الناس وتركت اثرا واضحا على مشاعرهم . ولاشك أن هذه القصيدة وغيرها من القصائد قد خلقت تيارا دافقا فى عصرها تعبيرا عن الاعجاب والتأثر بهذا المنهج الذى فضل ابن الفارض أن يبث من خلاله عشقة للذات الالهية . ولعل اول ملاحظة على هذه القصيدة تكمن فى هذه البساطة الشديدة التى تتدفق بها أبياتها فى يسر وعذوبة . وهده البساطة تعود الى ثلاثة مصادر : المصدر الاول هو مصرية الشاعر ونشأته فى بيئة سهلة واضحة . فالمصرية فى التعبير ومازال هذه الميزة باقية حتى فى الانتاج الادبى المعاصر تعد البساطة والوضوح والسهولة من ابرز سماتها ولا شك ان هذه العناصر تعكس خصائص الشخصية المصرية ذاتها ــ المصدر الثانى هو وضوح العاطفة وتركزها وتمكنها من روح الشاعر حتى اصبح الشاعر بفرحه الغامر بما هو فيه يجيش بالتعبير السهل الواضح فهو غنى بعاطفته غنى بلغته مقتنع بمنهجه الشعرى لا يعانى صراعا من اى نوع . الفرح هو الذى يصنع مثل هذه البساطة والمصدر الثالث هو الغنائية الخالصة التى ترتكز عليها أبيات القصيدة. وهو يعبر عن اعتزازه بمصريته حين يقول :

وطنى مصر وفيها وطرى ــــ ولعينى مشتهاها مشتهاها
ولنفسى غيرها ان سكنت ــــ يا خليلى سلاها ما سلاها

ولعل أبرز ملاحظة فنية على هذه القصيدة تكمن فى هذا الاستخدام الرفيع والذى ينطوى بلا شك على بعض المبالغة للمحسنات البديعية مثل الجناس والطباق ورد العجز على الصدر وغير ذلك . ولقد نشأ الشاعر فى عصر كان الولع فيه بهذه المحسنات قد بلغ ذروته . وكثير من القصائد قد غرقت الى اذنيها فى زركشة هامشية قد افقدها روحها الحقيقية ولا شك أن الكثير من الشعراء قد استعذبوا هذا الاتجاه الفنى الذى كان سائدا حتى سقطوا أسرى لجاذبيته الخادعة حتى ماتت قصائدهم ودفنت فى حينها ولكن عمر بن الفارض كان على ولعه بالمحسنات يتميز أولا بموهبة شعرية حقيقية تمثلت فى تمكنه من ناصية اللغة التى يستخدمها ويحسن استخدامها وثانيا وهذا هو الاهم أن عمر بن الفارض كانت لديه العاطفة الحارة والوجدان العامر والخيال الوثاب والافق الواسع مما يجعله قادرا على السيطرة على أدواته من ناحية وعلى النظر الى هذه الادوات كوسيط لتجربته الصوفية والشعرية وليست اللغة بديلا عن هذه الحالة بأى شكل من الاشكال . والى جانب هذه الملاحظة الاساسية حول استخدامه الواسع للمحسنات البديعية هناك هذه القدرة الهائلة

على بناء الصورة الشعرية بناء يوحى بالجدة والقوة . والصورة تتولد عنده من هذا الاستخدام الجديد لقوة الالفاظ وبعث الحركة من خلال المقابلة بين المعانى انه يحقق نوعا من اثارة الدهشة باعادة ترتيب دلالات الالفاظ داخل أبياته وهو يهز بهذا الاستخدام الجديد رسوخ المعانى القديمة وثبات الصور البديهية لينهض من جديد تصور قادر على استيعاب المعانى التى يريد توصيلها الى الآخرين . هو قادر على شحن الالفاظ من خلال تغيير دلالاتها بواسطة خلق علاقات جديدة لها بوهج جديد وحركة نفسية وروحية لم تكن لها قبل هذا الاستخدام فها هو يعطى نموذجا جيدا لاسلوبه هذا فى مثل هذه الابيات :

فاتهامى بالحب حسبى وأنى	بين قومى أعد من قتلاكا
لك فى الحى هالك بك حى	فى سبيل الهوى استلذ الهلاكا
عبد رق ما رق يوما لعتق	لو تخليت عنه ما خلاكا

ورغم أن هذه الابيات تطفح حتى الحافة بالمحسنات البديعية الا انه لا يسقط عبدا لهذه المحسنات كما صنع غيره من الشعراء وكما يقول الدكتور محمد مصطفى حلمى معلقا على هذه الصناعة اللفظية :

ومهما يكن من أمر الصناعة اللفظية التى تبدو واضحة فى بعض المواطن من شعر ابن الفارض فانه لا ينبغى مع ذلك أن ننكر على ابن الفارض انه كان فى اكثر شعره لا سيما الصوفى منه شاعرا مطبوعا بصفة عامة وشاعرا صوفيا ملهما بصفة خاصة . امتاز شعره فى جملته وفى اكثر تفاصيله برقة اللفظ ودقة المعنى وعمق الفكرة وجمال الصورة التى كثيرا ما يتخيلها الشاعر تخيلا نستطيع أن نرى بوضوح أن لغة الشاعر كانت عذبة تستوعب تراث الشعر الغزلى السابق عليه فهو يستخدم كثيرا كلمات الوصل والعذل والفراق والهجر . الذل والخضوع ولكن الموقف العام للقصيدة يؤكد أن الشاعر فى مقام الرجاء والتسليم وهذا الموقف اول العلامات الفارقة بين الحب الانسانى والحب الالهى هو شاعر صوفى من الابيات الاولى فهو يتخلى فى أول ما يتخلى عنه عن ذاته المتمثلة فى ارادته .

ولك الامر فاقض ما أنت قاض	فعلى الجمال قد ولاكا
وتلافى ان كان فيه ائتلافى	بك عجل به جعلت فداكا
وبما شئت فى هواك اختبرنى	فاختيارى ما كان فيه رضاكا

هذا التسليم المشفوع بالرجاء والمبطن بالتضحية بالارادة تفصح عنه القصيدة فى أبياتها الاولى ولا شك أن هذا الموقف الواضح البسيط هو موقف عاشق من نوع خاص فمهما كانت عاطفة العاشق التقليدى ولا يوجد عاشق تقليدى ـــ والعاشق عشقا انسانيا فان ارادته وذاته تظل كامنة تحت خضوعه وتوسله والشاعر فى خضوعه يتداعى ليكون حيثما يريد المحبوب وطوع مشيئته فهو يلوذ بالرجاء والتمنى فاذا لم يسفر

الرجاء والتمنى الاعن الهلاك فهو يطمع فى بقاء عينه لعلها تشاهد من شاهد الحبيب .

ابق لى مقلة لعلى يوما قبل موتى ارى بها من رآكا

وكما يكثر العاشق الذى يعشق عشقا انسانيا من الحديث عن متاعبه الخاصة من المرجفين والوشاة فعمر بن الفارض يفعل كذلك لانه يريد ان ينقل الينا بلغته الشعرية تجربته الصوفية : الشاعر فيه يغالب الصوفى فيغلبه احيانا واحيانا يستولى الصوفى على الشاعر فلا يدع له فرصة للفكاك .

شنع المرجفون عنك بهجرى واشاعوا انى سلوت هواكا
ما بأحشائهم عشقت فاسلو عنك يوما دع يهجروا حاشاكا

ولا يقصر الشاعر فى كثير من ابيات القصيدة فى التعبير عن المرتبة العالية والمنزلة الرفيعة لطبيعة عشقه وهذه ايضا من العلامات الفارقة بين حبه للذات الالهية وحب غيره لغيره من الفانين .

كل من فى حماك يهواك لكن انا وحدى بكل من فى حماكا

وهو بالطبع لا يقصد بهذا البيت نوعا من تفضيل نفسه على الجميع ولكنه يشير الى ان حبه فوق حب الجميع وعاطفته اقوى من عواطف الجميع ويجد هذا البيت تاكيدا شاملا له فى البيت الذى يقول فيه الشاعر :

يحشر العاشقون تحت لوائى وجميع الملاح تحت لواكا

هو سيد العشاق ومحبوبه سيد المعشوقين . ان الشاعر الذى يضحى بذاته وحريته وارادته يجد تعبه هينا عليه وسهاده ثمنا عادلا لظهور طيف الحبيب .

ومتى لاح لى اغتفرت سهادى ولعينى قلت هذا بذاكا

هذه القصيدة نشيد من اناشيد الحب الالهى نزلت الى نهر الجمال فهى لا تطيق ان تفارق شاطئيه . تؤكد ان الحب الحقيقى هو السعادة الحقيقية وهو الحكمة والكون كله . فاض قلب الشاعر بأبياته فغمر ارواحنا بهذا الصفاء الذى كان يعمر قلبه . ولن نستطيع ان نصل الى اغوار الدلالات الروحية التى ارادها الشاعر عمر بن الفارض الا اذا تسلحنا بهذا الكنز الغامر من الاشراق لذى كان يصدر عنه فيمثل حاله نصل الى فهمه وليس لنا الا السباحة القريبة من شواطىء نهره الغزير والا الشوق الى المعرفة الواسعة التى لا نملك فك رموزها وحسبنا قطرة من بحره .

غزليـــات ابـى تمـــام

الغزليـــات

— ١ —

بالابســا ثوب الملاحـة ابـسلـه فلأنت أولى لابسـبه بلبسـه
لـم يعطــك الله الذى اعطــاكه حتى استخف ببــدره وبشمسه
رشـــا اذا ما كان يطلق نفسه فى فتكه امر الحيـاء بحبسـه
وانا الذى اعطيتــه محض الهوى وصميمه واخذت عذرة انســه
فلئن جنيــت ثمــاره وغرســته ما كنت أول من جنى من غرسه
مولاك يا مولاى صـاحب لوعــة فى يومه وصــبابة فى أمســه
دنف يجود بنفســه حتى لقــد أمس ضعيفا أن يجود بنفســه

— ٢ —

بنفس حبيب ســوف يثكلنى نفسى ويجعل جسمى تحفة اللحد والرمس
جحدت الهوى ان كنت مذ جعل الهوى محاسنه شمسى نظرت الى الشمس
لقد ضاقت الدنيـا على بأسرها بهجرانه حتـى كأنـى فى حبس
أسكن قلبـــا هائمــا فيه مأتم من الشوق الا أن عينى فى عرس
وانـى لاخشى ان تراقت أمــوره به أن يثور الجن فيه على الانس

— ٣ —

معتـــدل لـم يعتـدل عد لــه فى عاشـــق طـــال به خبلـه
أطرافــه أحســن ام ظرفـــه أو وجهـــه احسن ام عقـــله
انظر فمـــا عاينت فى غـــيره من حسن فهـــو له كـــله
لو قيـل للحسن تمنـى المنـى اذن تمنـــى انـــه مثـــله
اى خصـــال حازهـــا ســيدى لو لم يكدر صـــفوها مطـــله

اســـتزارته فكرتى فى المنـــام فأتانـى فى خفيـــة واكتتـــام
الليـالى احفى بقلبى اذا مـــا جرحتـــه النوى من الايـــام
يـــا لهــا لذة تنزهــت الارو اح فيهــا سرا من الأجســام
مجلس لـم يكن لنا فيه عيــب غير انا فى دعـــوة الاحـــلام

— ٥ —

الهوى ظـــالم وانت ظـــلوم كيف يقـوى عليكمـــا المظلوم
للهوى جــراة ومنك صــــدود ليس لى منكمـا محب رحيـــم
قد برانى الهـــوى ودله عقــلى حــل بى منكما البلاء العظيـم
انما يعرف الســـهاد طول الليل من حبـــن وصـــله مصروم

— ٦ —

رقـــادك ياطرفى عليك حـــرام فخـل دموعـا فيضهن سـجام
ففي الدمع اطفاء لنار صـــبابة لها بين أثنـاء الضـلوع ضرام
ويا كبدى الحرى التى قد تصدعت من الوجد ذوبى ما عليـك مـلام
قضيت ذماما للهوى كان واجبـا على ولى ايضـا عليه ذ مـــام
وياوجه من ذلت وجوه أعــــزة له وســـطا عـزا فليس يرام
أجر مستجيرا فىالهوى بك باسطا اليـــك يديه والعيون نيـــام

— ٧ —

الحسن جزء من وجهـك الحسن يا قمـرا موفيـــا على غصـــن
ان كننت فى الحسن واحدا فأنـا يا واحد الحسن واحد الحـــزن
كـل سـقام تراه فى أحـــد فذاك فرع والاصــل فى بدنـــى
كوامن الحــب قبـل كونك فى افئدة العاشــــقين لم تـــكن

— ٨ —

لاتصـــدى فالصــد أمر عظيم وارحمـــى فالمحب بر رحيــــم
أمن العدل ان قلبـــك ســـال والهـــوى ثابت بقلبى مقيـــم
ثم الحقت بى الاســــاءة والظلم وغـــيرى هو المسىء الظــلوم
ما اجترمنــــا اليك جرمـا ولكن حـــب هذا الزمـان ليس يدوم

شاعر هذه الغزليات هو ابو تمام حبيب بن اوس الطائى واحد من ابرز ثلاثة شعراء عرفهم العصر العباسى كما يقول صاحب الوسيط فى الادب العربى والاخران هما البحترى والمتنبى .. وابو تمام صاحب مذهب شعرى جدد به ديباجة القصيدة العباسية واصبح علما على منهج تفرد به . ولد عام ١٩٠ هـ بقرية جاسم قرب دمشق ورحل الى مصر صغيرا وكان يعمل سقاء بجامع عمرو ابن العاص . وتأثر بعلماء المسجد وادبائه فتعلم العربية وحفظ مالا يحصى من شعر العرب ونبغ فى قوله ثم خرج الى بغداد حيث دبج المدائح فى المعتصم ووجد عنده حظوة عظيمة واكثر من مدائح الكتاب والوزراء والعمال والولاة وتقرب الى كبار المسئولين حتى ولاه عبد الحسن بن وهب بريد الموصل فأقام بها الى ان مات عام ٢٣١ هـ

يقول عنه صاحب الاغانى « شاعر مطبوع لطيف الفطنة دقيق المعانى غواص على ما يستصعب منها ويعسر متناوله على غيره وله مذهب فى المطابق هو كالسابق اليه جميع الشعراء وان كانوا قد فتحوه قبله وقالوا القليل منه فان له فضل الاكثار فيه والسلوك فى جميع طرقه والسليم من شعره النادر شيء لا يتعلق به احد . وله اشياء متوسطة ورديئة رذلة جدا وفى عصرنا من يتعصب له فيفرط حتى يفضله على كل سالف وخالف واقوام يتعمدون الرديء من شعره فينشرونه ويطوون محاسنه ويستعملون القحة والمكابرة فى ذلك . » ولقد افرط ابو تمام فى المدائح حتى حصد بها مغانم غيره من الشعراء واخملهم حتى انهم يقولون بأنه لم يترك شيئا من الجوائز لشاعر غيره لجودة شعره فلما مات قسمت الجوائز التى كان يأخذها على باقى الشعراء . ولعل فنه الجديد الذى يقوم على الخيال المركب وتوليد الصور الشعرية الغريبة ونبذ المألوف من المعانى والصياغة القوية غير المألوفة لشعراء ذلك العصر هى التى ادهشت الامراء وحببتهم فى شعره وقد كان أبو تمام لمعرفته بمستوى شعره وطمعه ايضا انتقاما لايام الفقر الاولى فى حياته حيث كان أبواه فقيرين يترفع عن الجوائز التافهة ولا يرضيه الا المال الغزير ويروى صاحب الاغانى لما شخص أبو تمام الى عبد الله بن طاهر وهو بخراسان اتبل الشتاء وهو هناك فاستثقل البلد وكان عبد الله وجد عليه وابطا بجائزته لانه نثر عليه الف دينار فلم يمسسها بيده ترفعا عنها فاغضبه وقال يحتقر فعلي ويترفع على . فكان يبعث اليه بعض الشيء كالقوت فقال أبو تمام :

لم يبق للصيف لارسم ولاطلل	ولا تشبيب فيستكسى ولا سمل
عدل من الدمع أن يبكى المصيف كما	يبكى الشباب ويبكى اللهو والغزل
يمنى الزمان انقضى معروفها وغدت	يسراه وهى لنا من بعدها بدل

فبلغت الابيات أبا العميثل شاعر عبد الله بن طاهر فاتى ابا تمام واعتذر اليه لعبد الله بن طاهر . وعاتبه على ما عتب عليه من اجله . وتضمن له ما يحبه ثم دخل الى عبد الله فقال : أيها الامير أتتهاون بمثل أبى تمام وتجفوه ؟ فوالله لو لم يكن له ما له من النباهة فى قدر — والاحسان فى شعر — والشائع من ذكره لكان الخوف من شره والتوقى من ذمه يوجب على مثلك رعايته ومراقبته فكيف وله بنزوعه اليك من الوطن وفراقه السكن وقد قصدك عاقدا بك أمله معملا اليك ركابه متعبا فيك فكره وجسمه وفى ذلك ما يلزمك قضاء حقه حتى ينصرف راضيا ولو لم يأت بفائدة ولا سمع فيك منه ما سمع الا قوله .

تقول فى قومس صحبىوقد اخذت	منا السرى وخطا المهرية القود
أمطلع الشمس تبغى أن تؤم بنا	فقلت كلا ولكن مطلع الجود

فقال له عبد الله . لقد نبهت فأحسنت وشفعت فلطفت وعاتبت فأوجعت ولك ولابى تمام العتبى ادعه يا غلام فدعاه فنادمه يوما وأمر له بألفى دينار وخلع عليه خلعة تامة من ثيابه وأمر بحراسته الى آخر عمله .
ولم يكن المدح هو الفن الاوحد الذى برز فيه أبو تمام بل ان مراثيه وفى مقدمتها مرثيته الشهيرة فى محمد بن حميد الطوسى تؤكد أنه كان شاعرا يجيد الرثاء اجادة تضعه فى قمة شعراء هذا الغرض القديم وكان تصويره للطبيعة جديدا فى ادائه فقد أبدع فى هذا الجانب الهام والذى يكاد الشعر العربى يبدو فيه فقيرا بجانب الاغراض الاخرى ولا شك أن شعره الغزلى قد ارتوى من خبرته الفنية الطويلة فجاء هو الاخر ناضجا رفيقا بالغ العذوبة رصينا جذل العبارة نضير الصورة . ولقد تأثر ابو تمام فى شعره وحياته بثقافة عصره هذه الثقافة التى شاعت فيها روح الترجمات من الاداب الاجنبية خاصة الاداب اليونانية والهندية وظهرت فى شعره هذه الافكار الفلسفية والاقيسة المنطقية التى تؤكد أن عقله وروحه قد انغمسا بقوة فى هذه الثقافات الجديدةالنشيطة والتى ذاعت وأثرت لا فى علماء الكلام والفقهاء وحدهم وانما تمثلها الشعراء أيضا يقول الدكتور « شوقى ضيف » وشعر أبى تمام زاخر بما يدل على أنه انقض على معارف عصره انقضاضا . تمثلها تمثلا دقيقا وخاصة التاريخ وعلم الكلام وما يتصل به من الفلسفة والمنطق . اما التاريخ فيتضح فى كثير من جوانب مديحه . وخاصة حين يعرض لقبيلة الممدوح ووقائعها وأمجادها فى الجاهلية والاسلام على نحو ما يلقانا فى قصائده لخالد ابن يزيد بن مزيد الشيبانى ومالك بن طوق التغلبى وكذلك حين يقرن وقائع بعض الابطال ودويها فى الخافقين الى وقائع جاهلية واسلامية مشهورة . ثم يقول الدكتور شوقى ضيف . وجعلته صلته بالمنطق والفلسفة يكثر من استخدام الادلة المنطقية وهى عنده تستمد من نفس احساسه العميق بتشابك حقائق الكون فاذا بعضها يرى من خلال بعض بل اذا بعضها يتخذ دليلاً وحجة على بعض . ويتسع التأثر بالفلسفة عنده حتى ليشيع الغموض فى كثير من أبياته وهو غموض بهيج كغموض الطبيعة فى الصباح والغروب اذ يجلله دائما شفق يأخذ بالالباب ونعجب اذ نجد القدماء يحملون عليه من أجله كما حملوا على اكثاره من اللفظ الغريب ومن التصاوير والوان البديع حتى قالوا انه أفسد الشعر وهو لم يفسده بل هيأ له ازدهارا رائعا تسنده فيه ثقافة واسعة بالفلسفة والمنطق وبالشعر العربى قديمه وحديثه كما تسنده قوة ملكاته التى جعلته يعد بحق حامل لواء الشعر العربى فى عصره . بل جعلته صاحب مذهب مستقل بخصائصه العقلية والزخرفية .

يستقيم لنا من قراءة شعر أبى تمام فى مراثيه ومدائحه ووصفه للطبيعة منهج شعرى متميز تتضح خصائصه فى غرابة صوره هذه الغرابة الناشئة عن تجاوز العلاقات الفنية داخل هذه الصور لحدود البلاغة القديمة وغموض معانيه لجموح خياله وشططه الفلسفى وكثرة الاقيسة العقلية والمنطقية فى شعره وانتقاء الغريب من الالفاظ استجابة

للمبالغة الخيالية والنفسية التى كانت من اهم سماته . فهل ينطبق هنا المنهج الشعرى عند ابى تمام على غزلياته التى نتعرض لها الآن ؟ اذا تأملنا الغزليــة الاولى برزت لنا على الفور الصورة العقلية المنطقيــة وراء صورها . فها هو يأمر حبيبه باستهلاك ثوب الحسن ومعنى هــذا الاستهلاك هو التمتع به فهو ينصحه بالتمتع بهذا الجمال الذى هو أولى به وها هو المنطق يبرز فى هذه المقارنة بين تفوق جماله الساحق وبين بهاء الشمس والقمر فالبيت كله يعكس قياسا منطقيا ونظرة عقلية وها هى المطابقة فى البيت الثالث بين الاطلاق والحبس وها هو يرى أن ماجناه من غرسه كان منطقيا ثم تخف قبضة الصورة العقلية ليظهر التقســيم البلاغى ورد العجز على الصدر حين يقول :

دنف يجود بنفســـه حتى لقد أمسى ضـــعيفا أن يجود بنفســـه

ان اللغة فى هذه الغزلية واضحة لا غموض فيها وربما كان الدافع الى ذلك هو الحاجة على توضيح موقفه من هذا الحبيب الذى يضن عليه عليه بجماله وهو يحاول أن يقنعه بأنه انما يعانى من أجله فى يومــه وينصحه بالتمتع معه بهذا الحسن الباهر الذى يجاوز بهاء الشمس والقمر . ولا نملك الا الاعجاب بهذه الصور البارعة التى تتحرك فى اطار مألوف من قيود البلاغة القديمة والمحسنات البديعة المعروفة ولكن تظل هــذه الصور وهذه الغزلية أكثر اثارة لموقف العقل من موقف الحس فاذا انتقلنا الى الغزليــة الثانية . وجدنا الشاعر مازال يشكو من هجران حبيبه هذا الهجران الذى تركه فى الغزلية الاولى على حدود المرض ولكنه فى الغزلية الثانية يقترب به من الموت نفسه . بل أن هذا الحبيب القاسى ســوف يقدم حبيبه تحفة للحد والقبر . وها هو الشاعر يلجأ الى براعته وذكائه فى استمالة قلب حبيبه هذا التودد الذى يصعد به الى المبالغة . وهو مرة أخرى يضع حبيبه فوق مرتبــة الشمس المضيئة فهــو يعلن جحوده للهوى ان كان منذ اتخــذ محاسن الهوى شمسا له قد نظر الى هذه الشمس الحقيقية . وأى تعبير جميل غير مباشر يتضمنه هذا البيت أنه يبدو كما لو كان بيتا تقريريا مباشرا ولكنه فى الواقع بيت شديد التركيب غنى بالمعانى الكثيرة فهو فى بدايته يتهم بنفســـه بجحود الهوى . وهذا التقديم للجحود يعنى أنه يراه فادحا وجليلا وغير محتمل وهو يمزج بين الحب والمحبوب حين يتحدث عن المحاسن فهو قد اتخذ هذه المحــاسن الرائعــة شمسا له . والشمس هنـــا اعظم وأجل قدرا من القمر . فهو يرى فيها قوة الحياة ذاتها . النور والدفء وقوة النماء ويدفع الهجران الشـــاعر الى اعــلان الضيق بالدنيـــا كأنه فى ســجن بسبب الهجر الا انه يقفز الى بيت جميل تلعب فيه المقابلة دورا دراميا بديعا . فها هى كلمة ـــ اسكن ـــ تحمل الكثير من الدلالات الموحية بالهياج والجزع والقلق واللوعة كل هذا فى كلمة واحدة وكأنه يمسك بجواد جامح يريد أن يطير ويركض ثم تأتى المقابلة بين القلب الجاثم فى مأتم الاحزان والعين المتهجة بالعرس الذى خلقه جمالها . فقلبه حزين لعدم طمأنينته وخوفه وفزعه

وعينه سعيدة كأنها فى عرس . المقابلة بين المأتم والعرس ليست وحدها التى خلقت جمال الصورة وانما الفصل اللا منطقى بين القلب وبين مدركات الحواس . هذا الايهام الشعرى الذى يهدف الى بيان حالين متناقضين بل ويهدف الى تجاوزهما والى تصوير قوة الهجر وجمال المحبوب لتكون اللوعة تامة التصوير . ثم يأتى الى بيت تفسده المبالغة حتى تقتله حين يرى أن الجن ستثور على الانس بسببه . هى مبالغة فاترة لانها تأتى من خارج تجربة الشاعر وعناصرها الذاتية . وفى الغزلية الثالثة نجد الشاعر وقد فرغ من بث لواعجه الى تصوير أحوال المحبوب وهو تصوير تلعب فيه المحسنات البديعة والتلاعب بالالفاظ دورا أساسيا ــ فها هو المحبوب . معتدل لم يعتدل عدله ورغم كثرة الجناس فالبيت لا يفقد جماله فالمعتدل الاول هو اعتدال القوام . ولم يعتدل عدله تعبير عن ظلمه فى حبه وفى حكمه على هذا العاشق الذى طال به الجنون ثم يتجه الشاعر الى التقسيم أطرفه احسن أم ظرفه . أو وجهه أحسن أم عقله . يريده تاما كاملا فى الحسن والظرف والعقل . وما يكون الكمال البشرى اذا خرج عن جمال الهيئة والطبع وصحة العقل . انه فى هذا البيت الراقص يعطى انطباعا بمعنى تام مؤكد ــ واذا كانت المبالغة قاتلة لبعض الابيات مثل ثورة الجن على الانس فانها هنا فى البيت الذى يقول فيه :

لو قيل للحسن تمن المنى اذن تمنى انه مثله

هى هنا مبالغة مقبولة تشع فتنة ورقة . ان أبا تمام يستخدم البلاغة التقليدية ببراعة المكتشف الاول لقد كان واحدا من مؤسسى علم البديع بحيله الشعرية ولكن الشعراء الذى أفسدوا هذه المحسنات كانوا لا يملكون عبقرية هذا الشاعر الفذ . ثم ننتقل الى الغزلية الرابعة فاذا تعبيره عن الحلم يأخذ شكلا متوسطا ليس فيه براعة التجربة الحسية ذلك لانها تأمل عقلى خالص . أما الغزلية الخامسة فهى تمضى فى نفس منهج أبى تمام الشعرى . فها هو يواجهنا من البداية بهذه الحجة العقلية القوية فالهوى ظالم بطبيعته والحبيبة أشد ظلما من الهوى . ولذا يتساءل الشاعر تساؤلا انكاريا يائسا باطلا كيف ينجو المظلوم من بطش ظالمين . الهوى يدفعه الى الاقدام والالحاح وهى هاجرة تصده فكأنه مدفوع بقوة قاهرة هى الهوى لا يملك لنفسه فكاكا منها وهى ممتنعة لا تنصفه فيخف حزنه وألمه ثم يشكو سقمه وبلاءه وسهر الليالى والسهاد أما الغزلية السادسة فهى أشد هذه الغزليات لوعة وحزنا وها هو فيها لا يتجلد . بل يدعو عينه الى ترك النوم وانهمار الدموع فقد يطفىء الدمع نار الهوى المتأجج فها هى نار الحب مشتعلة فى جوانح نفسه وبين ثنايا الضلوع وها هو يقول لكبده التى تصدعت ذوبى ، ما عليك ملام هو يدرك ما فى كبده من حرارة الحب وعنائه فلا لوم على هذه الكبد بعد أن تصدعت من أن تذوب فالعبء ثقيل والهم لا يطاق . وكأن الشاعر

قد انتهى الى يأس لا شفاء منه بعد أن قضى ما عليه من واجبات وأعباء تجاه هذا الهوى وانتظر الجواب فلم يجد الاخرين يرعون ذمامه كما رعاه لهم . هل هى غزلية أم شكوى اليمة من الهجر . أن هذه المقطوعة تبتعد عن المحسنات البديعية والصور العقلية لان قوة الاحساس والانفعال بها قد صاغتها بعيدا عن ترف العقل وأقيسته وتأملاته فدموعه المنهمرة لم تترك له فرصة لاختيار المنطق . ويعود فى الغزلية السابعة الى لعبته المفضلة الى صورة العقلية ومقابلاته . وهذه الغزلية تعكس رؤية فلسفية واضحة . هو هنا يقيم مقارنة متصلة بين الحسن الكلى والحسن الجزئى بين وجه الحبيب الذى يمثل الكلى وبين معنى الحسن الذى يمثل الجزئى فها هو الجمال بعض هذا الوجه الجميل وها هو الشاعر يقارع واحد الحسن بواحد الحزن يعنى نفسه ويقدم للحبيب سقامه برهانا على حبه . هذا الحب الذى لم يكن موجودا قبل حصول هذا المحبوب فى أفئدة العاشقين فكأنه ينفى أن ثمة حبا سابقا على حب هذا المحبوب الزائد الحسن . أما الغزلية الاخيرة فهى نصيحة رقيقة من عاشق يرى الظلم قد حاق به دون ذنب جناه . يتوسل الشاعر بالمنطق والحجج والعقلية مرة اخرى فى محاولة لاقناع المحبوب بالعدول عن صده ويدعو الى الرحمة به فليس من العدل أن يكون قلب المحبوب خاليا ساليا وقلبه ثابتا على المودة ولماذا وهو لم يذنب ولم يسىء اى جرم أتى به الشاعر حتى يلقى كل هذه الاساءة والصدود وكأنه فى الختام يحذر المحبوب من أن الحب فى هذا الزمان عابر لا دوام له فهو تحذير يتضمن دعوة للاستمتاع بمباهج هذا الحب ونعيمه .
ان أبا تمام يظل فى كل شعره محتفظا بخصائصه التى تميز بها وصار بها اماما بين شعراء عصره واعطانا صوتا جديدا فريدا فى الشعر العربى كله .

لاميـــة العجـم

للشـــاعر الطغرائـــى

القصيدة

اصالة الراى صانتنى عن الخطل ‏ وحلية الفضل زانتنى لدى العطل

مجدى اخيرا ومجدى اولا شرع والشمس راد الضحى كالشمس فى الطفل

فيــم الاقامة بالزوراء لا سـكنى ‏ بها ولا ناقتى فيها ولا جمـلى

ناء عن الاهـل صفر الكف منفرد ‏ كالسيف عرى متناه من الخلـل

فلا صـديق اليه مشـتكى حزنى ‏ ولا أنيس اليـه منتهى جذلـى

طـال اغترابى حتى حن راحلتى ‏ ورحلهـا وقرى العسـالة الذبل

وضج من لغب نضوى وعج لما ‏ يلقى ركابى ولج الركب فى عذلـى

اريد بسطة كف استعين بهـا ‏ على قضاء جقوق للعلى قبلـى

والدهـر يعكس امالى ويقنعنـى ‏ من الغنيمة بعد الكد بالقفـل

وذى شطاط كصدر الرمح معتقل ‏ بمثله غير هياب ولا وكـل

حلو الفكاهة مر الجـد قد مزجت ‏ بقسوة اليأس فيه رقة بالمقـل

طردت سرح الكرى ورد مقلتـه ‏ والليل اغرى سوام الليل بالمقل

والركب ميل على الاكوار من طرب ‏ صاح وآخر من خمر الكرى ثمـل

فقلت ادعـوك للجـلى لتنصرنى ‏ وانت تخذلنى فى الحادث الجلـل

تنام عينى وعين النجم سـاهرة ‏ وتستحيل وصبغ الليل لم يحـل

تعبـين على غى هممـت به ‏ والغى يزجر أحيانا عن الفشـل

انى اريد طروق الجى من اضـم ‏ وقد رماه رماة الحى من ثقـل

يحمون بالبيض والسمر اللذان بهم ‏ سود الغدائر حمر الحلى والحلل

فسر بنـا فى ذمام الليـل مهتديا ‏ بنفحة الطيب يهدينا الى ـــ الحلل

فالحب حيث العدى والاسدرابضة ‏ نصالها بميـاه الغنج والكحـل

قد زاد طيب احاديث الكرام بهـا ‏ ما بالكرائم من جبن ومن بخـل

تبيت نار الهوى منهن فى كبـد ‏ حرى ونار القرى منهم على القلل

يقتلن انضاء حب لاحراك بهـا ‏ وينحرون كرام الخيل والابـل

يشفى لديغ الغوانى فى بيوتهـم ‏ بنهلة من لذيذ الخمر والعسـل

لعل المـامة بالجزع ثانيـة ‏ يدب فيها نسيم البرء فى علـل

لا اكره الطعنة النجلاء قد شفعت ‏ برشقة من نبال الاعين النجـل

ولا اهاب صفاح البيض تسعدنى ‏ باللمح من صفحات البيض فى الكلل

ولا اخـل بغزلان اغازلهـا ‏ ولو دهتنى أسود الغيل بالغيـل

حب السلامة يثنى هم صـاحبه ‏ عن المعالى ويغرى المرء بالكسل

فان جنحت اليه فاتخذ نفقـا ‏ فى الارض او سلما فى الجو فأعتزل

ودع غمار الغلى للمقدمين علـى ‏ ركوبها واقتنع منهن بالبلـل

يرضى الذليل بخفض العيش يخفضه ... والعز عند رسيم الانيق الذلل
فادرأ بها فى نحور البيد جافلة ... معارضات مثانى اللجم بالجدل
ان العلى حدثتنى وهى صادقة ... فى ما تحدث أن العز فى النقل
لو أن فى شرف المأوى بلوغ منى ... لم تبرح الشمس يوما داره الحمل
أهبت بالحظ لو ناديت مستمعا ... والحظ عنى بالجهال فى شغل
لعله ان بدا فضلى ونقصهم ... لعينه نام عنهم أو تنبه لى
اعلل النفس بالامال أرقبها ... ما أضيق العيش لولا فسحة الامل
لم أرتض العيش والايام مقبلة ... فكيف أرضى وقد ولت على عجل
غالى بنفس عرفانى بقيمتها ... فصنتها عن رخيص القدر مبتذل
وعادة النصل أن يزهى بجوهره ... وليس يعمل الا فى يدى بطل
ما كانت أوثر ان يمتد بى زمنى ... حتى ارى دولة الاوغاد والسفل
تقدمتنى اناس كان شوطهم ... وراء خطوى اذ امشى على مهل
هذا جزاء امرىء اقرانه درجوا ... من قبله فتمنى فسحة الاجل
وان علانى من دونى فلا عجب ... لى أسوة بانحطاط الشمس عن زحل
فاصبر عليها غير محتال ولا ضجر ... فى حادث الدهر مايغنى عن الحيل
اعدى عدوك من وثقت به ... فحاذر الناس واصحبهم على دخلٍ
وانما رجل الدنيا وواحدها ... من لا يعول فى الدنيا على رجلٍ
وحسن ظنك بالايام معجزة ... فظن شرا وكن منها على وجلٍ
غاض الوفاء وفاض الغدر وانفرجت ... مسافة الخلف بين القول والعملٍ
وشان صدقك عند الناس كذبهم ... وهل يطابق معوج بمعتدلٍ
ان كان ينجع شيء فى ثباتهم ... على العهود فسبق السيف للعذلٍ
يا وارد اسؤر عيش كله كدرٍ ... انفقت عمرك فى ايامك الاولٍ
فيم اعتراضك لج البحر تركبه ... وأنت تكفيك منه مصة الوشلٍ
ملك القناعة لا يخشى عليه ولا ... يحتاج فيه الى الانصار والخولٍ
ترجو البقاء بدار لاثبات لها ... فهل سمعت بظلٍ غير منتقلٍ
ويا خبيرا على الاسرار مطلعا ... أصمت ففى الصمت منجاة من الزللٍ
قد رشحوك لامر ان فطنت له ... فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهملٍ.

شاعر هذه القصيدة هو ابو اسماعيل مؤيد الدين الحسين بن على ابن عبد الصمد الذى اشتهر بلقب « الطغرائى » هو صاحب الطغراء وهى الطرة التى تكتب فى أعلى الرسائل فوق البسملة بالقلم الغليظ ومضمونها نعت الملك الذى صدر عنه الكتاب . وكان للطغراء ديوان خاص بها فى دولة السلاجقة التى حكمت بغداد وبلاد العجم فى الفترة من عام ٤٤٧هـ حتى عام ٥٢٥هـ ويضم هذا الديوان : الرسائل والانشاء .

ولد الشاعر عام ٤٥٣هـ فى جى من اصبهان فى اسرة من ولد ابى الاسود الدولى .

ولم يدخر جهدا فى تثقيف نفسه ثقافة واسعة جعلته عارفا بأحداث عصره متقنا لادوات فنه . الكتابة والشعر . كان طموحا الى المناصب

العالية يرى نفسه أهلا لاعلى المناصب في دولة السلاجقة فانخرط في سلك الكتاب يسعى الى اقامة أوثق العلاقات مع الرؤساء والوزراء وبعد أن تقلب بين السراء والضراء أصبح نائبا لديوان الطغراء ولم يلبث أن أصبح رئيسا لهذا الديوان نفسه . ولكنه كان يرى في هـذا الديوان مجرد مرحلة على الطريق الى الوزارة وقد بدأ يعمل لهذا الهدف مثابرا لا يكل وقد لاحظ المحيطون به من كبار موظفي دولة السلاجقة هـذا الطموح الغلاب الذى يشتعل في صدره كما كانوا خير من يعرف مواهب الطغرائي في الشعر والنثر مما يجعل هدفه قريبا منه . وكان أن حاصرته الكراهية والحسد والكيد وها هي الدسائس تسد عليه طرقه متخذة من الكذب والافتراء وسيلة للقضاء على هذا الشاعر الطموح . وقد انتصرت الاحقاد فعزل عن ديوانه في الوقت الذى كان يخطط فيه للوصول الى الوزارة ولا شك أن الاحباط قد أصاب نفسه المرهفة بجرح غائر في سويداء قلبه مما دفعه الى الرحيل والهجرة الى اصفهان ولعله أمضى فترة معتزلا ومنصرفا الى الكيمياء والتأليف كما يقول محققا ديوانه الدكتور على جواد الطاهر والدكتور يحيى الجبورى . ولكن الشاعر يعود من جديد الى ديوان الطغراء في أصفهان عام ٥٠٩ هـ ولكن لعنة حساده تطارده فيكيد له أحد هؤلاء الحاقدين فيتهم بالسحر ويعزى الى سحره مرض السلطان محمد ولم تلبث الاوساط القريبة من بيت الحكم أن صدقت الشائعات عن سحره فعزل مرة أخرى ولكنه عاد مرة ثالثة الى الديوان بعد وفاة السلطان محمد وتولى ابنه محمود السلطنة من بعده ولكن اللعنة تطارده حتى تضطره مرة ثالثة الى الاعتزال وملازمة بيته . ولم يهدأ باله لهذه العزلة رغم أنه كان في التاسعة والخمسين من عمره ولكن شهوة الطموح والوصول الى كرسى الوزارة كانت ما تزال متأججة في صدره . . فرحل الى الموصل حيث الملك مسعود بن السلطان محمد الذى استوزره . وكان صغيرا في الحادية عشرة من عمره يدبر له أمر مملكته قائد جيشه . ولم يلبث هذا القائد أن فكر في انتزاع السلطنة من السلطان محمود وضمها الى سلطنة مسعود حتى تكون تحت يده وتبدأ المواجهة بين جيوش السلطان محمود وأخيه السلطان مسعود ويكتب النصر للأول ويأسر الشاعر بعد هزيمة حامية ويواجه أعداءه مرة أخرى . أعداءه الذى حاصروه واقعدوه وها هم الان يمسكون به كالطائر الجريح لا يملك من أمر نفسه شيئا ويتهم الشاعر بالالحاد وهى فرية كانت مجرد ذريعة للقضاء عليه وقتل الشاعر ظلما في ربيع الاول من عام ٥١٥ هـ . ولم يمكث الشاعر في المنصب الخطير الذى افنى حياته طلبا له أكثر من عام وشهر واحد وهكذا فتك به طموحه الغلاب في زمن كانت الدسائس والمؤامرات هى نظام العصر وطبيعته . ولا شك أن مأساوية العصر الذى عاش فيه الشاعر هى التى طبعت في نفسه هذه الصورة القاتمة للناس من حوله وجعلته سيء الظن بهم . فالحلقة المفرغة من الولاية والعزل والاقامة والرحيل والوصول الى الهدف والبعد عنه قد ألقت به في جحيم حقيقى من الشك والريبة والخوف وكان الشعر هو حليفه الدائم الذى صب في قواريره الزاهية عصارة تجاربه القاسية ومرارة أيامه التى كانت تزداد قتامة ويبدو أن تجدد

الامل فى حيـــــاته هو الذى جعله يحرص على المثـــــابرة وتجـــــاوز اليأس فى نفسه . فقد كانت حظوظ حياته المتقلبة مراوغة فلا هى تدعه فى النجاح الذى شقى فى الحصول عليه ولا تلقى به فى هو فشل نهائى يدفع به الى يأس مريح .

والقصيدة التى نحن بصددها لامية العجم واحدة من عيون الشعر العربى فى كل عصوره وبها اشتهر الشاعر فى مختارات الشعر العربى ولدى الشراح والباحثين والنقاد والبلاغيين . ولعـــل هذه القصـــيدة أن تكون اكمل نموذج لحياته وشعره ففيها كل عناصر المأساة التى حكمت حياة الشاعر رغم انه قالها فى بغداد عقب عزله الاول عام ٥٠٥ هـ ولكنها توشك أن تكون نبوءة كاملة بمستقبل أيامه كما كانت صورة تقترب من الـــكمال لماضـــيه الذى قضـــاه فى صـــحبة هواجســـه ومخاوفه وشكوكه وحزنه ويأسه وامله .

والقصيدة من الناحية الفنية توحى باتجاه الشعر العربى فى هذا القرن السادس الهجرى الى الدخول فى شحوب الافول على أبواب عصور الانحطاط الطويلة التى سادت الادب العربى بعد سقوط الخلافة الاسلامية فى أيدى الاجناس الاعجمية . هذه العصـــور التى تتميـــز بالاحتفـــال الشديد بالمحســـنات البديعية من جنـــاس وطباق ورد العجز على الصدر ولعب بالالفاظ الى آخر هذه الانواع التى عكف البلاغيون المتأثرون بعلم المنطق على صياغة قواعدها واقبل عليها الشعراء السطحيون تعويضـــا عما افتقدوه من مواقف كبرى فى مواجهة الحياة التى كانت تتردى بهم الى حيث لا يعلمون ولا يقدرون على مقاومته . كان عصر المتنبى وأبى العلاء وأبى فراس قد انقضى وبدأت عصور الضعف ولكن ذلك لا يعنى أن القصيدة تعانى من هـــذه الامراض الفنيـــة . ولـــكن القصيدة قد كتبت فى لغة تمت الى عصر العمالقة من الشـــعراء بأوثق الاسباب فهى جزلة . متينة الصياغة حافلة بالصور القوية الاخاذة تقترب من القصـــيدة الجاهليـــة فى وصفها للراحلة وتندمج فى القصيدة العباسية وهى تتحـــدث عن الخمريات ولكنها تؤكد بكل وضوح أنها بنت عصرها الذى كتبت فيه وانها جسدت مأساويته وارتفعت فى أسلوبها الى التعبير الشـــامل الذى يبدأ من التجربة الجزئية الخاصة ويصل الى العام . وتلمع خلالها ابيات قد تختلف معها من الناحية الفكرية حين نفهم الصلة بين الانسان والعالم على أساس من الشك والخوف والريبة فى أطار من العزم واليأس ولكن الشاعر فى النهاية ليس مفكرا انه شاعر يستخدم أدوات باللغةالحساسية لينفذ الى صميم وجداننا .

اشتهرت لامية العجم كواحدة من افضل قصائد الشـــعر العربى واشتهر بها الطغرائى فهل هى قصيدة فى الحكمة كما يوحى نصفها الاخير ؟

أم هى قصيدة فى الشكوى كما توحى معظم أبياتها ؟ أم هى قصيدة متعددة الاغراض وان كانت تعبر فى حذق ومهارة وصدق نادر عن أزمة حادة يعيشها الشاعر . هى أزمة حياته كلها بل الصحيح انها أزمة العصر الذى عاش فيه الحكم السلجوتى الذى انهى دولة بنى بويه وأقام أساس ملكه على شريعة النظم المأساوية التى اقامها الغدر والمكيدة والطمع وشهوة التسلط والسلطان. أن اعظم اسباب نجاح هذه القصيدة وذيوعها هى انها صادقة كل الصدق فى خلق صورة حية نابضة لادق مشاعر قائلها . طموحه ومعاناته وفشله . كما انها كذلك صورة حية رنانة من الحكمة التى تذكرنا بمجد أبى الطيب المتنبى وسوداوية أبى العلاء المعرى وانما هى عمل من الاعمال النادرة التى يقيض لها أن تكون شاهدا يطفح بالمرارة على قسوة العصر الذى قيلت فيه وذاتية الشاعر واضحة منذ الافتتاحية المباشرة التى توشك ان تزج بالقصيدة فى غرض تقليدى من اغراض الشعر وهو الفخر حين يقول :

أصالة الراى صانتنى عن الخطل وحلية الفضل زانتنى عن العطل
مجدى اخيرا ومجدى أولا شرع والشمس راد الضحى كالشمس فى الطفل

المباشرة التى تسود التعبير لا تنفرنا ولا تبعدنا عن التعاطف مع القصيدة لانها صيغت فى بناء متماسك يذكرنا بافتتاحيات المتنبى الجهيرة وصوره الشعرية التوية .

ويبدو أن الشاعر الذى عانى القسوة والكراهية والحسد من جانب المحيطين به قد شعر بضعفه واحباط مساعيه ولانه شاعر طموح قوى النفس بعيد الهمة لا يستسلم ولا ييأس فقد آثر أن يرفع فى وجه فشله بسيف الفخر والثقة فى النفس . ولكن هذا الصوت المتفاخر الشامخ لا يلبث أن يهوى فجاة الى هاوية الاحساس بالغربة والوحشة والفقد وأن كان فى تشبيه نفسه بالسيف الذى يخلو من العيب وكأنما يشير الى أن حاله التى هو عليها بما فيها من شقاء لا تعزى لعيب فيه وانما لخلل فى زمانه . لقد رسم فى بداية القصيدة صورة درامية لازمة نفس عالية الهمة . نفس بطل لا يقبل الهزيمة ولا الفشل ، فهو رجل ماجد ولكن الازمة تمسك بخناقه فهو غريب فقير وحيد كل شىء فى حياته يعانى من غياب ما يكفيه ويسعده بينما هو رجل همه فى طلب المعالى ان هدفه **واضح** :

اريد بسطة كف استعين بهاعلى قضاء حقوق للعلى قبلى

هو يريد أن يقوم بالتزاماته تجاه المجد فعليه واجبات أساسية للعلا لابد من القيام بها ولكن الدهر يعاند ويعكس له الآمال ويضطره

الى التراجع وللرضى من الغنيمة بالاياب . ان شخصية الشاعر تتبدى قوية حازمة مصرة على تحقيق هدفها فى الحياة ورغم قوة مايعانيه آلا أنه عازم على المضى وعدم الاستكانة الى حيث ترغمه الاقدار التى يسميها الدهر . فها هو يأخذ بزمام راحلته جسورا مقداما الى حيث يهوى وماذا يفعل وقد كتب عليه أن يكون حبه فى موضع به أعداؤه ويا له من اختيار صعب أن يكون الحب فى مكان واحد مع البغض أو تكون العداوة حارسة للحب ها هو يخاطب جواده :

فسر بنا فى ذمام الليل مهتديا بنفحة الطيب تهدينا الى الحلل
فالحب حيث العدى والاسد رابضة نصالها بمياه الغنج والكحل

والحقيقة ان الشاعر قد أدخل حديث الحب فجأة وهو يسرع براحلته الى طلب المعالى كحيلة شعرية للتخفيف من صرامة الاسترسال فى حديث الجد وقعقعة السلاح فرأى أن يروح عن متلقى شعره بهذه الفاكهة الحلوة التى تطيب بها النفوس والتى كان الشعراء القدامى يصدرون بها قصائدهم طلبا لاقبال الاذان على شعرهم ولا شك أن هذا الاحساس يؤكد رهافة مشاعر الطغرائى وبراعته فى صياغة عمله الفنى. ولكن ذلك الجزء من القصيدة لا يعد مجرد فاصل رقيق من المشاعر الناعمة للتخفيف من احتدام الازمة القاسية التى تحاصره وانما هى جزء رمزى يشير الى أن هدف الشاعر وأمانيه وأحلامه تتبدى له غراما تولع به النفس وعشقا تسعد به القلوب وتبذل من أجله التضحيات ويسهل من أجله الصعب . واذا كان الشاعر قد كرس الجزء الاول من القصيدة لكشف مأساته ومعاناته كبطل تراجيدى يدخل فى صراع مرير مع الواقع من أجل تحقيق احلامه فقد كرس الجزء الاخير لما يمكن أن نطلق عليه شعر الحكمة . ويا لهـا من حكمة بالغة القسوة تلك التى تمخضت عنها تجاربه الاليمة . لقد حاول الشاعر أن يضع نتائج تجاربه فى قاعدة شعرية عامة تقف على حدود الفلسفة وعلى أبواب الشعر متخذة من النعيم صورتها النهائية . وهذه الابيات تبدأ بالبيت الذى يقول :

حب السلامة يثنى هم صاحبه عن المعالى ويغرى المرء بالكسل

هذه الابيات تحتفل بها كتب الادب كجزء عزيز من أدب الحكمة . ولا شك أن هذا البيت يقف كموعظة بليغة صادقة فى التعبير عن موقف من الحياة يحكم عليها بالسلبية والموت . فلا شك أن ايثار السلامة هو الذى يقود الى الجمود والسلبية فى الحياة وقد يكون سببا قويا فى حرماننا من الحياة نفسها . ثم يحدد الشاعر طريق الكرامة والمجد

في الرحلة والترحال والحركة الدائمة وهكذا كانت حياته وهو يعلى بصورة قوية من دوافع الامل في الحياة . فهذا الامل هو خيط الفجر الذى يؤذن بانتهاء الليل

اعـــلل النفس بالآمـــــال ارقبهـــــاما اضــــيق العيش لولا نسمة الامل

ان أبيات هذا الجزء من القصيدة تمزج الشكوى بالحكمة بالفخـــر بالموعظة في اطار من ادانة العصر متهما الحظ . هذه الصيغة الغامضة للاقدار والظروف المحيطة بانه هو الذى يتنكر له ويمشى في ركاب من هم اقل منه في كل شيء .

تقـــدمتنى أنـــاس كـــان شـــوطهمورآء خطــــوى اذ امشى على مهـــل

ولاول مرة في القصيدة يلوم الشاعر نفسه وان كان هذا اللوم يأتى في صــــيغة عامة تصلح لكل امرىء يعـــــاتب نفسه في لحظـــــة الفشـــــــل :

هــــذا جـــزاء امرىء أقرانه درجــوامن قبلـــه فتمنى فســـــحة الاجـــل

والشاعر يلجأ الى نوع من الاقيسة المنطقية الهشـــة التى ندرك من أول وهلة تهافتها ولكنها مجرد عزاء غير مؤكد لهم نفس أصابها الفشل . واذا كانت تجـربة الشــاعر قد حركت روحه الى ينابيع الحـكمة في بعض الابيات فارتوت منها وحاولت أن تقربنا من منهلها العذب فان تجربة الشـــاعر ايضا قــد دفعت نفســـه المفعمة بالمرارة الى نوع من القسوة التى تفتقد الى الانصاف في الحكم على الحياة والاحياء . واذا كان الشاعر قد حاول أن يخلص من ذاته الى اطار عام من القواعد العامة والحـكم الجليلة فان ذاته قد عادت لتسيطر بسوداوية قاتمة على صــورة العالم المحيط به . هذا العالم الذى راى فيه الشـــاعر عــدوا ماكرا لئيما دائم الغدر والكذب ورأى في الناس صورة من الشر والقسوة والبغض فانتفى في هذا العالم وفي هؤلاء الناس الوفاء والحب والتكافل والثقة حتى لنجد الشاعر يدلى بأحكامه اليائسة في وجه الجميع فيتهم الاقربين ويشك في الجميع ولا يجد سندا له الا في قوته الذاتية وحدها .

ها هـــو يجانب الانصـــاف والموضوعية ويستسلم للغضب وعـــدم الثقـــة فيقول :

عـــدى عــــدوك من وثقت بــــه فحاذر النـــاس واصحبهم على دخل
وانما رجل الدنيا وواحدهـــــا من لا يعول في الدنيـــا على رجــــل

وتدخل القصيدة من هذا المنعطف الى اليأس فقد اسودت الدنيا في وجهه وها هو يرى أن حسن الظن بالناس نوع من العجز ويعلن غياب

الوفاء وتفشى الغدر ومخالفة القول للعمل . وكان لابد أن يقوده عـدم الموضوعية والغضب والسخط والتبرم الى أن يشعر باليأس يطـوق خطواته . ذلك لانه بعد أن أحكم الحصـار حـول اعنـاق النـاس فكأنه فى الواقع قد أحكمها حول عنقه هو نفسه أولا . من هنا يواجه الشاعر حياته خائرا القوى يائسا . لا قبل له بما هو مقبل عليه . لقد ضاع الامل من الشاعر فثقل عليه كل شيء .

فيم اعتراضـك لج البحر تركبه وانت تكفيك منه مصـة الوشـل

بدأ الشاعر يحدث نفسه بالاقتنـاع بالقليـل بدلا من الطمع فى الكثير فالقناعـة لا تحتاج الى الانصـار الذين يخـذلون ولا الى الاعوان الذين يغدرون وهـا هو يصل الى قمـة الدراما انها التخلى عن الحياة ذاتهـا :

ترجـو البقـاء بدار لا ثبـات لها فهل سمعت بظل غير منتقـل

ان القصيدة تتطور بطريقة درامية من موقف الازمة الى مـوقف الهزيمة لتصور محنة شاعر التف حول ذاته وسيطر عليه طموحه ورأى فى هذا العالم كله أعداء له . انه بطل تراجيدى يواجه قدرا صنعه بنفسه ليسقط فى النهاية ضحية لـه . واذا كانت القصيدة تحفل بقيم ايجابية كثيرة فى مقدمتها اعلاء شأن الامل فان موقف الشـاعر الاساسى كان من أعظم سـلبياتها هذا الموقف هو رؤية العالم من زاوية خاصـة جدا رؤية تقول اما أن يكون هذا العالم فى خدمتى أو فليذهب الى الجحيم ، ولا نسـتطيع بالطبع أن نصـل الى حكم قاس على هذا الشاعر وحده الذى قتله طموحه لان هذا الحكم ينبغى أن يشـمل العصر الذى عاش فيه وغرس فى نفسه هذه البذور المريرة التى تجلت فى هذه الحكمة القاسية التى حدثتنا عنها قصيدته .

ان شخصية الطـغرائى مثـل شـخصية المتنبى . مأسـاوية فى جوهـرها لانهـا وجـدت نفسـها محـاصرة بين واقع لا تريـده وآمـال لا تقـدر عليهـا ، ويا لـه من مصير فاجع مشـترك بين المتنبى والطغرائى .

ابــــو الهـــــول

لامير الشعراء احمد شوقى

القصــــــــيدة

أبا الهول : طـال عليـك العصر — وبلغت فى الارض أقصى العمـر
أيالدة الدهر : لا الدهر شـب ولا انت جاوزت حـد الصغر
الام ركوبـك متـن الرمـا — ل لطى الاصيل وجوب السحر
تسـافر منتقـلا فى القرون — ن فأيان تلقى غبـار السفر
أبينك عهـد وبين الجبـال — ل تزولان فى الموعـد المنتظر

***

أبا الهـول : ماذا وراء البقـا — ء ـ اذا ما تطاول ـ غير الضجر
عجبت للقمـان فى حرصه — على لبد والنسور الاخر
وشكوى لبيد لطول الحيـا — ة ولو لم تطـل لتشكى القصر
ولو وجدت فيك يا ابن الصفا — ة لحقت بصانعك .. المقتدر
فان الحيـاة تفـل الحديـ — ـد اذا لبسته وتبلى الحجر
أبا الهول ما انت فى المعضلا — ت لقد ضلت السبل فيك الفكر
تحـيرت البـدو ماذا تكون — ن وضـلت بوادى الظنون الحضر
فكنت لهم صـورة العنفوا — ن وكنت مثـال الحجى والبصر
وسـرك فى حجبـه كلمـا — اطلت عليه الظنـون اسـتتر
وما راعهم غير رأس الرجـا — ل على هيكل من ذوات الظفر
ولو صوروا من نواحى الطبـا — ع توالوا عليك سـباع الصـور
فيارب وجه كصـافى النمـ — ـير تشـابه حـامله والنمر
أبا الهـول ويحك لا يستقـ — ـل مع الدهر شىء ولا يحتقـر
تهزأت دهـرا بديك الصباح — فنقـر عينيـك فيما نقـر
أسال البياض وسل السـواد — وأوغل منقـاره فى الحفـر
فعـدت كأنك ذو المحبسين — قطيـع القيـام سـليب البصر
كأن الرمـال على جانبيـ — ك وبيـن يديك ذنوب البشـر
كأنك فيهـا لواء القضـاء — على الارض أوديدبان القـدر
كأنك صـاحب رمـل يرى — خبايا الغيوب خلال السـطر

***

أبا الهـول أنت نديم الزمـا — ن نجى الأوان سـمير العصر
بسـطت ذراعيـك من آدم — ووليت وجهك شـطر الزمـر

تطل على عالم يستهل   ل وتوفى على عالم يحتضر
فعين الى من بدا للوجو   د وأخرى مشيعة من غبر
فحدث فقد يهتدى بالحديث   وخبر فقد يؤتس بالخبر
الم تبل فرعون فى عزه   الى الشمس معتزيا والقمر
ظليل الحضارة فى الاولين   ن رفيع البناء جليل الأثر

يؤسس فى الأرض للغابرين ويغرس للآخرين الثمر
وراعك ما راع من خيل قمبيز وترمى سنابكها بالشرر

جوارف بالنار تغزو البلاد   د وآونة بالقنا المشتجر
وابصرت اسكندرا فى الملا   قشيب العلا فى الشباب النضر
تبلج فى مصر اكليله   فلم يعد الملك عمر الزهر
وشاهدت قيصر كيف استبد   د وكيف اذل بمصر القصر
وكيف تجبر أعوانه   وساقوا الخلائق سوق الحمر
وكيف ابتلوا بقبايل العديـ   ـد من الفاتحين كريم النفر
رمى تاج قيصر رمى الزجا   ج وفل الجموع وثل السرر
فدع كل طاغية للزمان   ن فان الزمان يقيم الصعر
رايت الديانات فى نظمها   وحين وهى سلكها وانتثر
تشاد البيوت لها كالبروج   ج اذا أخذ الطرف فيها انحسر
تلاقى أساسا وشم الجبال   ل كما تتلاقى اصول الشجر
وايزيس خلف مقاصيرها   تخطى الملوك اليها الستر
تضيء على صفحات السماء   وتشرق فى الارض منها الحجر
وآبيس فى نيره العالمو   ن وبعض العقائد نير عسر
تساس به معضلات الامو   ر ويرجى النعيم وتخشى سقر
ولا يشعر القوم الا به   ولو أخذته المدى ما شعر
يقل أبو المسك عبدا له   وأن صاغ احمد فيه الدرر
وآنست موسى وتابوته   ونور العصى والوصايا الغرر
وعيسى يلم رداء الحيا   ء ومريم تجمع ذيل الخفر
وعمرو يسوق بمصر الصحا   ب ويزجى الكتاب ويحدو السرر
فكيف رأيت الهدى والضلا   ل ودنيا الملوك وأخرى عمر
ونبذ المقوقس عهد الفجو   ر واخذ المقوقس عهد الفجر
وتبديله ظلمات الضلال   ل بصبح الهداية لما سفر
وتأليفه القبط والمسلمين   ن كما الفت بالولاء الاسر
أبا الهول لو لم تكن آية   لكان وفاؤك احدى العبر
اطلت على الهرمين الوقوف   ف . كثاكلة لا تريم الحفر
ترجى لبانيهما عودة   وكيف يعود الرميم النخر
تجوس بعين خلال الديا   ر وترمى بأخرى فضاء النهر
تروم بمنفيس بيض الظبا   وسمر القنا والخميس الدثر
ومهد العلوم الخطير الجلال   وعهد الفنون الجليل الخطر
فلا تستبين سوى قرية   أجد محاسنها ما اندثر
تكاد لاغراقها فى الجمود   د اذا الارض دارت بها لم تدر
فهل من يبلغ عنا الاصول   ل بأن الفروع اقتدت بالسير
وانا خطبنا حسان العلا   وسقنا لها الغالى المدخر

وانا ركبنــا غمـــار الامــور ... ر وانا نزلنـــا الى المؤتمــر
بكل مبين شــديد اللـــدا ... د وكل أريب بعيــد النظــر
تطــالب بالحــق فى أمــة ... جرى دمهــا دونــه وانتشر
ولم تفتخــر بأســا طيلهــا ... ولكن بدســتورها تفتخــر
فلم يبق غــيرك من لم يخــف ... ولم يبق غــيرك من لم يطــر
تحرك ابا الهــول هذا الزمــا ... ن تحرك ما فيه حتى الحجــر

وعلى لسان ابى الهول جاءت هذه الابيات :

نجــى ابى الهــول آن الاوان ... ن ودان الزمــان ولان القــدر
خبــات لقومــك ما يســتقرو ... ن ولا يخبأ العذب مثل الحجــر
فعندى المــلوك باعيانهــا ... وعندى التوابيت منهــا الأثــر
محا ظلمة اليأس صــبح الرجــا ... ء وهذا هــو الفلق المنتظــر

شاعر هذه الخريدة هو أمير الشعراء احمد شوقى الذى شــغل الناس فى هذا العصر الحديث كما شــغلهم ابو الطيب المتنبى فى القرن الرابع الهجري والقرون التالية له . ذلك لان كلا الشاعرين قد بهر الناس بهذا الشعر الرفيع الذى جعل من اللغة مادة سحرية تنفذ الى الوجدان الراكد فتحركه وتدفعه الى السمو باحلامه الى عنان السماء . ومهما يكن من أمر المقارنة بين المتنبى وشوقى وتقديم كل منهما على الآخر فان الامر الذى لا يمارى فيه احد ان شوقي والمتنبى عملاقان شاهقان اوتى كل منهما موهبة كبيرة على صياغة رؤاه بأقصى مهارة تقدر عليها اللغة وتستجيب لها واذا كان حظ المتنبى قد قضى له الحرمان والشقاء والاحباط فكأن الاقدار قد أرادت التكفير عن ظلمها للمتنبى أو ظلم المتنبى لنفســه فمنحت شوقى الرفعة والرخاء والقرب من الملوك مشمولا بالرضى ولعل هذا أن يقضى قضاء حاسما على فــكرة شاعت طويلا بين بعض الادباء باقامة عــلاقة متعسفة بين الحرمان والابداع الرفيع . فها هو شوقى يبدع بلا حرمان وها هو المتنبى يبدع وسط حرمانه ان المعول دائما انما هو على الموهبة والارادة الصادقة التى تقف وراء هذه الموهبة .

ولد احمد شوقى فى ١٦ أكتوبر عام ١٨٧٠ لاسرة اختلطت فيهــا الدماء المصرية التركية اليونانية وكان رب هذه الاسرة يعمل فى معيــة الخديوى والتحق بمدرسة الحقوق عام ١٨٨٥ وبقى بها حتى عام ١٨٨٩ وفى عام ١٨٩٠ عينه الخديوى توفيق فى قلم الســكرتارية الخــديوية بقسم الترجمــة حتى عام ١٨٩٣ حيث ســافر فى بعثــة على نفقــة الخــديوى توفيق الى فرنســا ليكمل دراسته فى الحقوق قضاها بين مونبليه وباريس وزار خلالها انجلترا والجزائر وكثيرا من قرى ومــدن الجنوب الفرنسى وفى عام ١٨٩٦ أوفدته الحكومة المصرية ممثلا لهــا فى

مؤتمر المستشرقين في جنيف حيث القى قصيدته الطويلة « كبار الحوادث في وادي النيل » ثم سافر من هناك في رحلة الى بلجيكا وقد نشر الجزء الاول من ديوانه الشوقيات عـام ١٩٠٠ نفى الى أسـبانيا فى الفتـرة من ١٩١٥ حتى ١٩١٩ وفى عـام ١٩٢٤ عين عضوا بمجلس الشـيوخ بايعته وفود الدول العربية فى ٢٩ ابريـل عـام ١٩٢٧ أمير للشـعراء وكان الاحتفـال بتنصـيبه أمـيرا للشـعراء قـد أقيـم فى دار الاوبرا بالقـاهرة ولقي ربـه فى الرابع عشر من اكتـوبر عام ١٩٣٢ عن اثنتين وستين سنة .

تعتبر الشوقيات هى العمل الشعرى الرئيسي لاحمد شوقى وهى ديوان من أربعة اجزاء يتناول الجزء الاول رؤيتـه السياسية والتاريخية والاجتماعية وفى هذا الجزء الهام يتضح اهتمام شوقى الكبير بأحـداث عصره أما الجزء الثانى فيضم قصائده فى الوصف والنسـيب وبعض الاغراض الاخرى ويكاد الجزء الثالث أن يكون مكرسا كله لشعر الرثاء وقد طبع الجزء الرابع بعد وفاته ويشـتمل على قصـائد فى السياسة والتاريخ وبعض القصائد التى أطلق عليها جامعها اسم الخصـوصيات وكذلك بعض الحكايات الشعرية تدور على لسان الحيوانات « شبيهة بقصص « كليلة ودمنة » وقصص لافونتين فى اللغـة الفرنسـية . وقد صدر عام ١٩٦١ و ١٩٦٢ عن الهيئة العـامة للـكتاب ما عرف باسم الشوقيات المجهولة فى جزأين جمعها وعلق عليها الدكتور محمد صبرى السربونى .

كان شوقى رائدا فى مجال المسرح الشعرى فهو الذى أسس لهذا الفن مدرسة هامة فى الشعر العربى المعاصر . وقد كتب شوقى عـددا من المسرحيات الشعرية هى : على بك الكبير ومصرع كليوباتره ومجنون ليلى وقمبير وعنترة واميرة الاندلس . والست هدى وهى ملهاة واقعية .

يقول أحمد شوقى فى مقدمة الشوقيات :

« انى قرعت ابواب الشعر وأنا لا أعلم من حقيقته ما اعلمه اليوم ولا أحد أمامى غير دواوين للموتى لا مظهر للشعر فيها وقصائد للاحيـاء يحذون فيها حذو القدماء ثم يتحدث عن وظيفة الشعر فيقول :

على أن الشعر ليس من حاجات العمران المادى الذى تتوقف عليه سعادة الانسان فى هذه الحياة الدنيا ولكنه من كماليات العمران الادبى الذى تسأم النفس عنده الحقيقة المجسدة والمادة المجردة وتميل فى بعض أوقاتها الى التنقل بشعورها من عالم الى آخر ومن فضاء الى سـواه ولعل هذه هى الحكمة فى كون الشعراء قليلا عديدهم فى كل زمان ومكان لا تعطى الامم منهم الا بقدر حاجتها اليهم » .

وقد تعرض شوقى لكثير من النقد وهذا النقد نفسه كان يقدر قيمة شوقى كشاعر بلغ بالاطار التقليدى القمة فى الصياغة والاداء واسفرت الحملات النقدية بالطبع عن تطور حتمى فى مسيرة الشعر وكانت مدرسة الديوان العقاد والمازنى من أشد النقاد الذين تعرضوا لشوقى بالنقد الذى تطرف الى التجريح فى بعض الاحيان . واذا كان هذا النقد قد صحح بعض المعايير الفنية لدى الاجيال الطالعة فانه فى نفس الوقت لم يهدم هذا الصرح الفنى العظيم الذى شاده شوقى بعبقريته النادرة واذا كان شوقى يتعرض للنقد فما ذلك الا لافساح الطريق أمام ابداع معاصر يلائم روح العصر حتى يتمكن الشعر من التخلص من التقليد الاعمى والمسايرة الفنية التى درج عليها انصاف الموهوبين .

قصيدة ابى الهول التى نحن بصددها واحدة من روائع أمير الشعراء التى اكتملت فيها عناصر شاعرية هذا الشاعر العظيم ففيها تتجلى هذه الرؤيا التاريخية الشاسعة الاطراف اتساعا وعمقا مما يدل على ثقافة الشاعر من ناحية وارتباطه الوجدانى بهجوم وطنه من ناحية أخرى . وفيها هذا الجنوح الى تأمل رحلة الزمان تأملا ذا مستويين المستوى الاول هو المظهر الخارجى التاريخى وذلك من خلال سرد الاحداث وتتبع ظهور الممالك واختفائها والمستوى الثانى هو المستوى الميتافيزيقى وهو الذى يعلو على الحدث المباشر لحركة الحياة من الميلاد الى الموت ومن القوة الى الضعف . كل هذا من خلال هذا التمثال الباهر الذى يقوم شاخصا الى الصحراء وكأنه يشهد شهادة صامتة ساخرة على ما يحدث وما يجرى . ما يقوم وما يسقط .

الشاعر يبدأ بالاستفهام الذى ينبىء عن الدهشة والاعجاب والحيرة وكأن الشاعر بهذا يسلكه فى الاحياء وكيف لا وهو يحمل وجه انسان وجسد أسد أنه يشير بتكوينه الى أعظم ما فى الحياة — العقل وذلك بالمظهر الانسانى الذى يتمثل فى وجهه والقوة التى تتمثل فى جسده وكأن أبا الهول بمظهره المجيد الخالد يؤكد أن الطريق الى المجد والخلود انما يكون عن طريق واحد هو مزج القوة بالحكمة وهل قالت الفلسفة والشعر والعلوم والفنون والحضارة اكثر من هذا ؟ وكما قال الشاعر الانجليزى شيلى انما ينقص الاقوياء الحكمة وينقص الحكماء القوة — شوقى يسلك أبا الهول فى عداد الاحياء ولكنه يتساءل عن طول الرحلة فى قلب الزمان وهذا المفتتح ليس اكثر من دهشة ومدخل الى التأمل العظيم فيما وراء هذا البقاء فى الزمان .

أبا الهول ماذا وراء البقاء اذا ما تطاول غبر الضجر

ويدخل الشاعر من دهشة البقاء فى الزمان الى دهشة التناقص الانسانى — فها هو لقمان الحكيم يحرص على طول عمره الذى ارتبط

بأعمار سبعة نسور يهلك بعد هلاك آخرها وكان آخرها هو لبد الذى كان لقمان اشد حرصا عليه من النسور الاخرى وعلى الجانب الاخر من هذا الحرص نرى لبيد بن ربيعة يشكو طول عمره حيث يقول :

ولقـد سئمت من الحيـاة وطولهـا وسـؤال هـذا النـاس كيف لبيد

ولكن شوقى الذى بدأ بالايهام بأن الهول حى وذلك بالحـديث معه عن الضجر يسفر عن وجه الحقيقة يؤكد لابى الهول أن خلوه من الحياة هو الذى منحه البقاء . لان الحياة تفل الحديد وتبلى الحجـر . اذا لبسته . وها هو يؤكد المعنى الذى ترمز له هيئة ابى الهول .

ورغم انه يصور حيرة الناس من بدو وحضر فى تفسير لغز هـذا الماثل المهيب فى الصحراء الا انه يعبر فى الواقع عن حيرته هو نفسـه انه يتساءل عن الاسرار المحجبة وها هو يعود الى التأمل بعد التساؤل فى الوضع الانسانى كما حدث بالضبط فى مقدمة القصيدة . بدأ بالتساؤل ثم ثنى بالتأمل وها هو يرد على دهشة الناس وحيرتهم بالدخـول الى اعماق البشر . لماذا ينـكرون هذه الهيئـة الحيوانية الانسانية اليسوا هم ايضا كذلك : لو ان أجسادهم اخذت شكل صفاتهم لجاءت صورهم هكذا فى صورة الانسان الحيوان فلماذا يندهشون . الا يحسون بالحيوانية بداخلهم فكأنه يوحى بأن أبا الهول ليس الا تفسيرا تشريحيـا لمفهوم الانسان تفسير تشريحى يتضمن اجابة اخلاقية عن الوضع الانسـانى فى نفس الوقت :

فيـا رب وجـه كصـافى النمـير تشـابه حامـله والنمـر

لاعجب اذن ان تجىء يا ابا الهول على هذا النحو الغريب . فأنت لست الا انسانا ظهر على جسده ما كمن فى باطنه من صفات .

وها هو الشاعر احمد شوقى يلتمس فى خياله الشعرى مـددا على تفسير هذه الخريشات الواضحة فى وجه ابى الهول مستدعيا فى ذهنه أبا العلاء المعرى وعراف الرمال وما شاعت له ظنونه أن تستدعى لمعرفة لغز هذه الحقيقة الكامنـة فى هذا الصخر ثم يحـاول بعد أن أعطاه صفة العراف أو المؤرخ او الشاهد على كل العصور أن ينطق بما يرى وبما رأى وأن يفرض بالطبع رؤيته التاريخية مستخلصا من هذه الرؤية العظة الكبرى وهى فى الواقع هدف القصيدة فقـد كان شوقى شاعرا وطنيا اخلاقيا كبيرا وتبدأ المسيرة الشعرية التاريخية بفرعـون عزيزا فى ملكه ينتسب الى الشمس والقمـر وها هو قمبيز والاسـكندر وجنودهما ثم يأتى من بعد ذلك قيصر روما عجل ابيس ـــ ايزيس . وتمضى مسيرة الغزاة بمصر الى ان يتوقف الشاعر وقفته الكبرى عنـد الفتح الاسلامى لمصر .

هنا يرى شوقى فى الاسلام نهاية لظلام الفجور وصبحا للهداية يطلع تحت رايات عمرو بن العاص . ولا ينسى الشاعر بعد هذه الوقفة مع الفتح الاسلامى لا ينسى دليله التاريخى أبا الهول فيناشده من جديد :

اطلت على الهرمين الوقوف كثكلة لا تريم الحفر
ترجى لبانيهما عودة وكيف يعود الرميم النخر

اذن فأبو الهول يقف منتظرا عودة الفراعنة ولكن شوقى يستبعد هذه العودة هل احس الشاعر بلوعة التمثال وكأنه غريب فى الزمان يهاجر الى زمنه الاول محلقا بحثا عن المجد والرخاء والقوة — لا شك أن هاجس القوة كان يحتل فى نفس الشاعر مكانا واضحا . فمصر كانت تبحث عن ذاتها فى ذلك الوقت ومن الطبيعى أن يقوم الشاعر بهذا التشريح التاريخى مركزا على قيمتين اساسيتين هما : القوة — والعقل وكأنه بهذا يشير الى وطنه موضحا من خلال جلال التاريخ ان طريق النهوض والبعث لابد له من هاتين القيمتين .

ولعل الحسرة تتبدى له وهو ينظر الى عاصمة المجد القديمة ممفيس وقد انحطت الى قرية اجد ما فيها ما قد اندثر . وما أروع هذه الصورة الباهرة للجمود . جمود هذه القرية التى كانت فى الماضى عاصمة للحضارة الفرعونية .

تكاد لاغراقها فى الجمود اذا دارت الارض بها لم تدر

ثم يدعو الشاعر الى النهضة والاقتداء بالاجداد :

فهل من يبلغ عنا الاصول بأن الفروع اقتدت بالسير

هو فى الواقع ينهى قصيدته بنوع من الرضى عن أمته وعن خطواتها الشابة على مدارج الحضارة المعاصرة . وقد القيت هذه القصيدة فى حفل افتتاح مسرح الازبكية « المسرح القومى حاليا وكان تمثال لابى الهول قد اقيم فى فناء هذا المسرح فلما أتم الصوت الاول الذى القى القصيدة الابيات التى قالها شوقى مسائلا ابى الهول نهض صوت آخر ليعلن أن الصبح طلع ثم انشق صدر أبى الهول عن فتى وفتاة مثلا أمامه وانشدا نشيدا مطلعه :

اليوم نسود بوادينا ونعيد محاسن ماضينا

تؤكد هذه القصيدة أول ما تؤكد ثقافة شوقى الواسعة ووطنيته وغيرته على بلاده وهى تعطى صورة حية عامرة بالاحساس لهذه

العبقرية الشعرية التى تألقت ولم تخب أبدا أن البحر المتقارب يستجيب لهذا السرد التاريخى الذى حاول الشاعر أن يلتقطه من العصور المختلفة ولكن هذا البحر نفسه يتوتر ويصعد فى لحظات التأمل الميتافيزيقية ليلائم اللحظة النفسية التى يمر بها الشاعر . ان اللغة تكتسب مرونتها وقوتها من مهارة الموهبة التى تستخدمها وقد كان شوقى عبقريا حقا فى صقل ديباجته الشعرية حتى صعد الشعر على يديه الى ذروة عالية . واذا كان شوقى قد أنشد الانسانية هذه القصائد الباقية فان هذه القصائد نفسها لن تكف عن اعطاء أبهى الصور وازهاها لشاعرية أمير الشعراء أحمد شوقى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الخــــريف

للشاعر الدكتور ابراهيم ناجى

القصــــــــيدة

يا حبيبى غيمة فى خاطـــــرى وجفونى وعلى الأفق ســـحابه
غفــــر الله لهـــا ما صـنعت كلمـــا شاكيتها تندى كآبـــه
صرخ القفــر لهـــا منتحبـــا وبكى مستعطفا ممـــا أصـــابه
فأصم الغيث عنـــه اذنـــــه ما على الايام لـــو كان أجـــابه

كثر الهجر على القلب فهــــل من ســـلو او بعاد يرتضـــيه
أنت فجر من جمـــال وصـــبا كل فجر طـــالع ذكرنيـــه
كيف جانبتـــك ابغى ســـلوة ثـــم ناجيتـــك فى كل شـــبيه
أيا الســـاكن عينى ودمـــى اين فى الدنيـــا مكان لست فيه

عند أزمـــع ركب العمـــــر رحلة نحو المغـــانى الأخـــر
ظهرت تجلوك كـــف القـــدر صـــورة اروع مافى الصـــور
نتراءى فى الشـــباب العطـــر نفحة تحمـــل طيب الســـحر
وقـــف العمـــر لهـــا معتذرا وثنى الركب عنـــان الســـفر

عندما اقفرت الدنيا جميعـــا لحت لى تحمل عمرا وربيعـــــا
ان يكن حلمـــا تولى مسرعـــا اجمل الاحلام ما ولى سريعـــا
ان يكن مـــا كان دنيـــا يقتضى خلنى ادفعــــه عنك دموعـــا
قد شربناه عـــزيزا غاليـــا ان تكن بعـــت فانى لن أبيعـــا

يا ندامى الحب ســـمار الهوى سكبوا لى السهد فى ذاك الشراب
أرقنى أجــــرع الســـقم وبى صفرة الكأس واوهام الحبـــاب
كلمـــا تقبـــل أيام المنـــى تنجلى النعمـــاء عن ذاك السراب
وترى أيامـــى الحـــيرى على عرسها الضاحك احزان الضباب

لم اقيـــدك بشـــىء فى الهوى انت من حبى ومن وجـدى طليق
الهوى الخالص قيـــد وحـده رب حر وهو فى قيـــد وثيـــق
مزقت كفيك أشـــواك الهـــوى وانا ضـــقت بأحجـــار الطريق
كـــم ظمـــى بظمـــى يرتوى وغريق مســـتعين بغريـــق

ياليـــالى العمر ما سر الليـــالى البطيئـــات المـــلات الطوال
مسرعات مبطئات ولهـــا خفة الموت وأثقـــال الجبـــال

كاسـفات البال عرجـاء المنى — عاثرات الحظ شـوهاء الظلال
عجبـا للعمـر يمضى مسرعا — للمنـايا بسـلحفاة الملال

يا قمـارى الروض فى أيك الهوى — جفت الروضة من بعد النديـم
حـل بالايك خريف منكـر — وظـلال قاتمـات وغيـوم
ماتت الروضـة الا طائفـا — من هوى حى على الذكرى يقوم
فاذا انكر ما حـل بهـا — فـر يبغى سربه بين النجـوم

شاهت الدنيا وجوهـا ورؤى — وتولاهـا سـهوم ووجـوم
يا عذارى الحسن فى ظل الصبا — كل حسن بعد ليـلاى دميـم
يا نعيم العيش فى ظل الرضـا — آه لو أعـرف ماطعم النعيـم
أنكـر الجنـة قلب ضـجر — ابدى النار موصـول الجحيـم

طالمـا موهت بالضحك فمـا — غير التمويه رايـا لك فيـا
كلمـا تنظر فى عينـى تـرى — سرى الغافى ومعناى الخفيـا
وترى فى عمـق روحى زهـرة — قد سقاها الحزن دمعـا ابديا
ويراه النـاس طـلا وترى — أنت دمعا غائمـا فى مقلتيـا

يا فؤادى ما تـرى هذا الغروب — ما ترى فيه انهيـار العمـر ؟
ما ترى فيه غريقا ذا شـحوب — يتلاشى فى خضـم القـدر ؟
ما تراهـا اتأدت قبـل المغيب — ورمت من عرشـها المنحـدر
لفتة الحسرة للشـط القريب — قبل أن تسـقط خلف النهـر

يا فؤادى قاتـل الله الضـجر — وعذابى بين حـل وسـفر
ما ترى قنطـرة من بعدهـا — راحـة ترجى وبال يسـتقر
ذلك الجـرح وما أفدحـه — ما عليـه لوالى السـلوى عبر
قد طواه اليـوم فى بردتـه — واتى الليـل عليه فانفجـر

مر يومى فارغـا منـك ومن — امل اللقيـا فمـا اتعس يومى
أنت يومى وغدى أنت ومـا — من زمـان مر بى لم تك همـى
آه كم اغدو صـغيرا حاجتـى — لك كالطفـل الى رحمـة ام
ولـكم اكبر بالحـب الى أن — اغتدى مستشرقا افاق نجـم

اى سر فيك انى لسـت ادرى — كل ما فيك من الاسرار يغـرى
خطر ينساب من مفتر ثغـر — فتنة تعصف من لفتـة نحـر
قدر ينسج من خصـلة شـعر — زورق يسبح فى موجة عطـر
فى عباب غامض التيـار يجرى — واصلا ما بين عينيك وعمـرى

ذات ليـل والدجـى يغمرنا — اترى تذكر اذ جزنا المدينـة ؟
كلما روعت من نـار شـج — حرما يصلى تلمسـت جبينـه

بيد شفافة مثل الندى الرطب تعيد النار بردا وسكينه
أيها الآسى لنارى هذه ... ما الذى تصنع بالنار الدفينه

أخيالا كان هذا كله ... ذلك الجسر الذى كنا عليه
والمصابيح التى فى جانبيه ... ذلك النيل وما فى شاطئيه
وشعاع طوفت فى مائه ... وظلال رسبت فى ضفته
وحبيب وادع فى ساعدى ... ووعود نلتها من شفتيه

رب لحن قص فى خاطرنا ... قصة الحادى الذى غنى سهاده
وكأن الصمت منه واحة ... هيأت من عشبها الرطب وساده
ها أناعدت الى حيث التقينا ... فى مكان رفرفت فيه السعادة
وبه قد رفرف الصمت علينا ... ان فى صمت المحبين عبادة

رفرف الصمت ولكن أقبلت ... من أقاصى السهل أصداء بعيده
تتهادى فى عباب ساحر ... مرسل للشط أمواجا مديده
كم نداء خافت مبتعد ... تشتهى أذن الهوى أن تستعيده
عاد منسابا الى أعماقها ... هامسا فيها بأصداء جديده

رفرف الصمت ولكن هاهنا ... كل ما فيك من الحسن يغنى
آه كم من وتر نام على ... صدر عود نوم غاف مطمئن
وبه شتى لحون من أسى ... وحنين وأنين وتمنى
رقد العاصف فيه وانطوت ... مهجة العود على صمت مرن

هذه الدنيا هجير كلها ... أين فى الرمضاء ظل من ظلالك
ربما تزخر بالحسن وما ... فى الدمى مهما غلت سر جمالك
ربما تزخر بالنور وكم ... من ضياء وهو من غيرك حالك
لو جرت فى خاطرى أقصى المنى ... لتمنيت خيالا من خيالك

أنا ان ضاقت بى الدنيا أفىء ... لثوان رحبة قد وسعتنا
انما الدنيا عباب ضمنا ... وشطوط من حظوظ فرقتنا
ولقد أطفوا عليه قلقا ... غارقا فى لحظة قد جمعتنا
كلما تترى المعانى أجتلى ... خلف معناها لأسرارك معنى

ما الذى صبك صبا فى الفؤاد ... ما الذى ان اقصه عنى عاد
طاغيا يعصف عصفا بالرشاد ... ظامئا سيان قرب وبعاد
ساهر العينين موصول السهاد ... ما الذى يجرى لهيبا فى الرماد
ما الذى يخلقنا من عدم ... ما الذى يجرى حياة فى الجماد

كم حبيب بعدت صهباؤه ... وتبقت نفحة من حببه
فى نسيج خالد رغم البلى ... عبث الدهر وما يعبث به
ما الذى فى خصلة من شعره ... ما الذى فى خطه أو كتبه

ما الذى فى أثر خلفه ... من افانين الهوى أو عجبه

ما الذى فى مجلس يألفه ... عقد الحب عليه موعده
ربما يبكى أسى كرسيه ... ان نأى عنه وتبكى المائدة
ربما تحسبها هشت اذا ... عائد هش لها أو عائده
ربما تحسبها تسألنا ... حين تمضى أفراق لعده

كم أعدت لك سترا فى الخفاء ... وتوارت عن عيون الرقباء
كم أعدت نفسها وانتظرت ... واستوت موحشة تحت السماء
وهى لو تملك كفا صافحت ... كفك الحلوة فى كل مساء
وهى لو تملك جودا بذلت ... كل ما تملك كف من سخاء

رب كرم مده الليل لنا ... فتواثبنا له نبغى اقتطافه
وعلى خيمته أسوده ... عربى الجود شرقى الضيافة
وجد العرس على بهجته ... وسناه دون ورد فأضافه
ثم وارت يده جنبية ... وطوته أساطير الخرافة

أرج يعبق فى أنحائه ... حملته نحو عرشينا الرياح
كل عطر فى ثناياه سرى ... كان سرا مضمرا فيه فباح
يالها من حقبة كانت على ... قصر فيها كآماد فساح
نتمنى كلما طابت لنا ... ان يظل الليل مجهول الصباح

يا فؤادى العمر سفر وانطوى ... وتبقت صفحة قبل النوى
ما الذى يغريك بالدنيا سوى ... ذلك الوجه وذياك الهوى

❋ ❋ ❋

شاعر هذه القصيدة هو الشاعر الطبيب الدكتور ابراهيم ناجى واحد من ابرز من الممثلين لهذا التيار الشعرى الذى عرف فى الثلاثينيات بتيار المدرسة الرومانسية او جماعة ابو للو التى أسسها الدكتور احمد زكى ابو شادى ورأسها امير الشعراء احمد شوقى فترة قصيرة قبل وفاته . وقد انبثقت هذه المدرسة بمفهومها للشعر من الحملة النقدية التى قام بها عباس العقاد والمازنى فى كتابهما الهام الديون

فجاء شعر ناجى وأقرانه ثورة جذرية تعبر عن طموح الذات للتعبير عن نفسها والخروج من الاطار التقليدى الذى رفع قواعده العالية أحمد شوقى ومدرسته . وكان من بين شعراء مدرسة أبوللو البارزين الى جانب الدكتور ابراهيم ناجى . على محمود طه وأبو القاسم الشابى وأحمد زكى أبو شادى والتيجانى يوسف بشير ومحمود حسن اسماعيل

وحسن كامل الصيرفى وغيرهم وكان ناجى يتميز بينهم بهذا الصوت المشحون بالالم الفياض بالعواطف الانسانية يتشح عالمه بهذا الحزن الغامر الذى يكتنف نفسه والطبيعة من حوله . وينوغل فى صميم علاقاته الانسانية . كان احساسه بالزمن احساسا رومانتيكيا فالزمن عنده ليس الخلود الذى يتجاوز نطلعاتنا وطموحنا ويسحقنا فى لامبالاة قاسية وانما الزمن مندمج بمفهوم الحياة فلا فصل بينهما . زمن خاص لان الحياة ذات مغزى خاص . ومن هنا فقد كانت رؤيته للزمن محدودة بأيام عمره . هذا العمر نفسه كان يجد حقيقته فى عاطفة واحدة وفى احساس واحد . هى عاطفة الحب والاحساس بالسعادة . وكان الحب شاحبا والسعادة غائبة على الدوام . ولد ابراهيم ناجى فى ٣١ ديسمبر عام ١٨٩٨ فى بيئة مثقفة محبة للعلم حيث كان والده يمتلك مكتبة غنية ولقد ادرك هذا الوالد منذ البداية علامات الموهبة تلوح فى مخايل ولده فوجهه للاستفادة منها . اعلنت شاعريته عن نفسها فى وقت مبكر فقد بدأ محاولاته الشعرية وهو فى الثالثة عشرة من عمره وكان اعجابه الاول بالشريف الرضى . تخرج فى كلية الطب عام ١٩٢٣ ومارس الطب لمدة اربع وعشرين سنة . بدأت مرحلة هامة من حياة الشاعر بظهور ديوانه الاول « وراء الغمام » عام ١٩٣٤ وقد قوبل هذا الديوان كما يقول الدكتور طه وادى فى كتابه « شعر ابراهيم ناجى الموقف والاداة » — « قوبل ديوان ناجى الاول بحفاوة بالغة ولكن نقد طه حسن قد اساءه وادمى روحه والحقيقة أن طه حسن قد ظلم الشاعر ناجى حين حكم على شعره بأحكام لفظية عامة واتهمه بأنه « شاعر هين لين » وأن شعره أشبه بموسيقى الغرفة ثم اخذ يتتل الديوان وصاحبه بالملاحظات الجزئية المتناثرة حول قصيدة واحدة هى « قلب راقصة » ولعل ابلغ ما اساء اليه هو المقارنة غير العادلة بينه وبين على محمود طه حيث تعصب له طه حسين وفضله على ناجى » .

وقد اصدر ابراهيم ناجى بعد ديوانه الاول ديوانه الثانى « ليالى القاهرة » عام ١٩٤٤ ثم ديوانه الثالث « معبد الليل » عام ١٩٤٦ ثم صدر له بعد وفاته الجزء الاخير من ديوانه « الطائر الجريح » عام ١٩٥٣ . واصدر الاستاذ حسن توفيق خلال عام ١٩٧٨ بعض القصائد المجهولة للشاعر . وبهذا نستطيع أن نقول بأن الشاعر قد أنشأ تراثا شعريا غزيرا يصل الى خمسة دواوين شعرية وقد توفى الشاعر فى ٢٥ مارس عام ١٩٥٣ بعد حياة مليئة بالاحزان الخاصة والعامة وقد تنفست هذه الاحزان فى قصائد دواوينه فملأتها رقة وعذوبة وان كانت الكآبة قد سيطرت على الجزء الاكبر من هذه القصائد . ومفهومه للشعر يتمثل فى هذه الكلمات التى أوردها فى مقدمة ديوانه الثانى «ليالى القاهرة» يقول الدكتور ابراهيم ناجى « الشعر عندى هو النافذة التى أطل منها على الحياة واشرف منها على الابد وما وراء الابد هو الهواء الذى أتنفسه وهو البلسم الذى داويت به نفسى عندما عز الاساه هذا هو شعرى » والحقيقة أن هذا المفهوم للشعر لا يكشف الا عن مواجع وآلام الشاعر

بدلا من الكشف عن أسرار الصنعة الفنية عنده فهو ليس معنيا بتحديد أصول نقدية للعملية الابداعية بقدر ما هو معنى بالافاضة عن نفسه . انه تلقائى فى شعره وتلقائى فى تعبيره عن هذا الشعر ولقد كان — شعره مرآة صافية لآلامه . وأحزانه . ولا شك أنه كان ينكر أن يكون دوره هو الحديث عن الشعر بل كان الشعر همه الاوحد .

يقول الدكتور طه حسن فى محاولة للتعريف بشعر ناجى « ليس الدكتور ناجى رجلا حسن البلاء صادق النية فى حب الشعر فحسب وانما هو فوق هذا كله موفق الى حد بعيد فيما يحاول من ارضاء الشعر وأصحابه موفق فيما قصد اليه من المعانى موفق فيما اصطنع من الالفاظ موفق فيما اتخذ من الاساليب . معانيه جديدة تصل أحيانا الى الروعة الفاظه جيدة قد يعظم حظها من المتانة والرصانة وأساليبه جيدة أيضا عظيمة الحظ من الصفاء لا يفسدها العوج ولا يفسدها الالتواء فى كثير من الاحيان شاعر مجيد تألفه النفس ويصبو اليه القلب ويأنس اليه قارئه أحيانا ويطرب له سامعيه دائما . . من هؤلاء الشعراء الذين يحسن أن تستمتع بما فى شعرهم من الجمال . كما تستمتع بجمال الوردة الرقيقة النضرة دون تشتط عليها بالتقليب والتعذيب . هو شاعر هين لين رقيق حلو الصوت عذب النفس خفيف الروح قوى الجناح شعره أشبه بما يسميه الفرنجة موسيقى الغرفة منه بهذه الموسيقى الكبرى التى تذهب بك كل مذهب وتهيم بك فيما نعرف وما لا نعرف من الاجواء » ولا شك أن الرقة الصافية والهمس الرقيق الذى كانت تنضح بهما قصائد ناجى هى التى عرضته للاتهام بالضعف من قبل الدكتور طه حسين . وقد ادرك الناقد الدكتور مندور فى كتابه « فى الميزان الجديد » ان هذا الشعر الرقيق انما هو شعر انسانى لا يدل على ضعف فى تكوين الشخصية يقول الدكتور مندور موضحا نظريته الجديدة : « الهمس فى الشعر ليس معناه الضعف فالشاعر القوى هو الذى يهمس فتحس صوته خارجا من أعماق نفسه فى نغمات حارة ولكنه غير الخطابه التى تغلب على شعرنا فتفسده اذ تبعد به عن النفس عن الصدق عن الدنو من القلوب . الهمس ليس معناه الارتجال فيتغنى الطبع فى غير جهد ولا احكام صناعة . وانما هو احساس بتأثير عناصر اللغة واستخدام تلك العناصر فى تحريك النفوس وشفائها مما تجد وهذا فى الغالب لا يكون من الشاعر عن وعى وانما هى غريزته المستنيرة لا تزال به حتى يقع على ما يريد . الهمس ليس معناه قصر الادب أو الشعر على المشاعر الشخصية . فالاديب الانسانى يحدثك عن أى شىء يهمس به فيثير فؤادك ولو كان موضوع حديثه ملابسات لا تمت اليك بسبب ». وفى ضوء هذا الرأى الجديد الذى نادى به الدكتور محمد مندور يمكن اعادة تقييم شعر ابراهيم ناجى الذى لحقه ظلم أدبى شديد :

قصيدة الخريف التى نحن بصددها هى احدى روائع ديوانه الثانى « ليالى القاهرة » وهى تعكس صورة حزينة لآمال خائبة وحب تولى

وذكريات تشع بالفرح حينا وبالحزن فى أكثر الاحيان . تبدأ القصيدة بصرخة رمزيه يطلقها الجدب الموحش فى النفس طالبا الارتواء . والشاعر يقرر من البداية أن الغيوم منعقدة فى خاطره وجفونه وعلى الافق أيضا فما هى هذه السحابة التى يراها الشاعر أم هى ثلاث غيمات مختلفة أغلب الظن أن الغيوم الثلاث رموز لثلاثة معان متباينة . فالغيمة الاولى التى يحملها فى خاطره انما هى رمز للذكرى التى يستعيدها الشاعر فلا تعود والغيمة التى يحملها فى جفونه هى غيمة الدموع التى تحتشد فى عينيه باحثة عن مخرج تخفف به عن نفس الشاعر أما السحابة المعلقة فى الافق فهى سحابة الامل التى يرجوها الشاعر أن تروى قفر حياته . ومن هنا فهو يركز حديثه ونداءه لها ولكنها لا تمطره الا الكآبة ولا تستجيب لبكائه واستعطافه وما من شاعر يحاول أن يرسم صورة للخريف يمكن أن يكون أكثر توفيقا من هذه البداية المعتمة المجدبة التى لا يريد الغيث أن يمد لها يد العون . بعد هذه الصورة الرمزية التى جسد فيها الشاعر احزان نفسه وعدم استجابة الواقع بالامل . يفصح الشاعر عن كوامن اللوعة فى نفسه . انه الهجر الذى ثقل على القلب وقد اختار الشاعر لفظ « كثر » بدلا من « ثقل » للدلال على أن الهجر ليس فقط هجر الحبيبة انما هو هجر كثير متعدد المصادر والدوافع . ويبحث الشاعر عن سلوى تريح قلبه أو فراق يرضيه . ولكن سحر جمال المحبوبة قد سد أمامه جميع المنافذ فهو قد ملأ عليه شغاف نفسه يحاصره حصارا محكما لا فكاك منه وما أبلغ تعبيره عن تمكن الحب من نفسه وامتلاء هذه النفس بمحبوبها حتى لتراه فى كل مكان .

أيها الساكن عينى ودمى أين فى الدنيا مكان لست فيه

فالعين وسيلة الرؤية والدم طريق الاحساس فهو يراها فى كل مكان ويحس بها أيضا . وهذا البيت لاستخدامه « العين والدم » قد بلغ الذروة فى كمال المعنى الذى ورد فى الشطر الثانى من البيت .

يحاول المؤلف أن يصور اغراء هذه الحبيبة وتفوقها فى المقطع الثالث . أما المقطع الرابع فهو تعبير عن جمال الاحلام السريعة التى يرى الشاعر أن سر جمالها فى سرعتها وهو يتصدى بدموعه للوفاء بدين الهوى الثقيل ولا يتردد الشاعر فى تمسكه بحبه معرضا عن التفريط والبيع .

قد شربناه عزيزا غاليا ان تكن بعت فانى لن أبيعا

في المقطع الخامس يتوجه الشاعر الى رفاقه لعل لديهم السلوى ولكننا نلاحظ المزج في هذا المقطع بين المتناقضات . فها هو السهد قد سكب في الشراب وها هي أيام الشباب تنجلي عن الوهم ويمتزج العرس الضاحك بأحزان الضباب ان الشاعر يعلن عجزه وفشله وعدم قدرته على الفكاك من أسره الذي سقط فيه . ثم يرجع الى المحبوب مرة أخرى متوسلا راجيا باسطا يد العذر والاعتذار فهو في الواقع لم يقيد هذا المحبوب بقيد يثقل عليه بل لقد ترك له الحرية المطلقة فالحب قيد خفي وهو لا يريد له مزيدا من الاغلال فالحب بأشواكه قد مزق كفي المحبوب بين صعاب الطريق تلك التي رمز اليها بالاحجار هي الاحجار قد أدمته ودفعت نفسه الى الضيق . وها هما مرتبطان بقدر واحد وكأنهما غريقان يمسك كل منهما بتلابيب الاخر . وينتقل الشاعر بعد ذلك الى التأمل . ان الهجر قد أورثه الاحساس ببطء الزمن . زمنه الداخلي الخاص ولكنه في نفس الوقت يعي أن الزمن الخارجي الذي ينهي الاعمار يبلي والارواح ليس بطيئا ولا متمهلا . وهذه المعاني العميقة والمقطع الرائع الذي يصور فيه الحياة مملة بطيئة مجسدا الليالي كأنها من أروع ما تضمه هذه القصيدة من اشراقات صافية تغمر النفس بالحقيقة. اجساد تتحرك على مهاد الزمن هذا المقطع يفلح في اعطاء المعنى العميق لصورة الهجر دون أن يتحدث عنه . ولا يستسلم الشاعر لبطء الليالي فيرفع الرأس مخاطبا القماري كما كان ابو فراس الحمداني يخاطب الحمائم لعلها تعزيه في محنته . انه يشكو وطأة الخريف ووجهه الممل وظلاله القاتمة وغيومه العقيم فها هو يعلن موت هذه الروضة بعد رحيل النديم . والروضة هنا هي روضة الحب أما الخريف فهو الهجر المؤلم الذي قتلها بملاله وظلاله السوداء وما الذي يتبقى للانسان بعد أن تذبل روضته وتغيم السماء فوقه . فهل الدنيا الا هذا الطقس الداخلي الذي يجدب ويثمر بغياب الحب وحضوره وليس عجيبا اذن أن يعلن الشاعر أن الدنيا كلها قد شاهت وتولاها الوجوم والفتور وعدم الرغبة في شيء . وقد يحاول الشاعر أن يلبس تناعا زائفا للسعادة وذلك بافتعال الضحك ولكن محبوبته وحدها تدرك السر الذي يقيم في نفسه وها هو يجسد هذا السر في هذا البيت الجميل الذي يقول .

وترى في عمق روحي زهرة   قد سقاها الحزن دمعا ابديا

فهذه الزهرة تحمل من الدلالات معاني كثيرة هل هي زهرة النفس وحقيقتها أم هي زهرة الحب أم زهرة السعادة الضائعة كل هذه معاني محتملة لا يكشف عنه الشاعر . واذا كان الخريف انما هو تجسيد لذبول العاطفة وخمود الحب وتحكم الهجر فان الغروب هو الاخر يتآزر معه في رسم الصورة المكملة لفاجعة الحب ومأساة الحياة . وهو يوجه خطابه هذه المرة الى فؤاده فقد خاطب الحبيبة مرة والندامى مرة وطيور الروض مرة وآب الى فؤاده يستغيثه ويسأله ان كانت الحبيبة قد جادت بلفتة للشط القريب وبعد أن يتوجع من اليأس ويصور فراغ أيامه من لقائها

يتوقف بنا فجأة كأنه اكتشف جمالها وسرها وكأن هذه الصحوة المفاجئة انما هى محاولة لانقاذ نفسه من التردى فى الجنون انه يؤكد لنفسه ان سحرها لا يقاوم . ويقف المقطع الذى يبدأ بقوله اى سر فيك فى قلب القصيده كومضة اشراق . يكرس لها الشاعر كل قدراته الشعرية لوصف سجر وجمال المحبوبة . هذا السحر الغامض الغريب الذى يعلن عن نفسه فى فتنة الجسد . ويحتشد هذا المقطع بضجة موسيقية كبيرة كأنه يحاول أن يقيم لها عرسا فى نفسه يشفى نفسه من الضجر والملل . ان هذه الموسيقى العالية المفاجئة تأتى كمحاولة لمقاومة الضجر والملال وبطء الليالى الطويلة لعلها تبث الحيوية فى أوصال الحياة من جديد ثم يعود بعد ذلك الى التذكر ولكن كل ذكرياته تقود الى مدينة الوهم والحسرة والتفجع على أيام الهناءة العابرة ولكنه مستشبثبذكرياته عائد الى مغانيه القديمة .

ها أنا عدت الى حيث التقينا فى مكان رفرفت فيه السعادة
وبه قد رفرف الصمت علينا ان فى صمت المحبين عبادة

ان رفرفة الصمت تعطى للصمت معنى خاصا فهو يشبه الطائر السعيد ان الرفيف يوحى بالخفة والسعادة وقد الح الشاعر على هذه الصورة كأنه وجد فيها انعكاسا حقيقيا للرضى نفسه وسعادتها . ثم عاد الشاعر يتوجع ملتمسا جمالها يلوذ به من هجير الحياة وقد يميل الى تحميل الاقدار مسئولية الفراق .

انما الدنيا عباب ضمناوشطوط من حظوظ فرقتنا

ونراه بعد ذلك يتجول بين اثار الحبيب الكرسى والمائدة وكأنه يعقد الامل على الذكرى بدلا من الحقيقة الهاربة فى أن تمنحه السعادة ويختتم الشاعر قصيدته كما لو كان يرثى عصرا بأكمله مؤمنا بنهاية كل شىء ناظر الى تجربته العاطفية كما لو كانت العمر نفسه فها هو يخاطب فؤاده :

يا فؤادى العمر سفر وانطوىوتبقت صفحة قبل النوى
ما الذى يغريك بالدنيا سوىذلك الوجه وذياك الهوى

هذه روح ابراهيم ناجى المضيئة لا ترى فى الحياة الا الحب ولا ترى فى الحب الا الالم . أما قصيدة الخريف فمرثية رائعة لتجربة خصبة عميقة ملأت حياة الشاعر بالتعاسة والفرح ولكنها انتهت كما ينتهى كل شىء . تفصح القصيدة فى كل ابياته عن المعانى الاساسية التى عاش لها ومات ابراهيم ناجى وهى ، الحب ، والحزن، والجمال .



فى الغربة

للشاعر محمود سامى البارودى

تأوب طيف من سميرة زائر ... وما الطيف الا ما تريه الخواطر
طوى سدفة الظلماء والليل ضارب ... بأرواقه والنجم بالافق حائر
فيالك من طيف ألم ودونه ... محيط من البحر الجنوبى زاخر
تخطى الى الارض وجدا وماله ... سوى نزوات الشوق حاد وزاجر
ألم ولم يلبث وسار وليته ... اقام ولو طالت على الدياجر
تحمل اهوال الظلام مخاطرا ... وعهدى بمن جادت به لا تخاطر
خماسية لم تدر ما الليل والسرى ... ولم تنحسر عن صفحيتها الستائر
عقيلة اتراب توالين حولها ... كما دار بالبدر النجوم الزواهر
غوافل لا يعرفن بؤس معيشة ... ولاهن بالخطب الملم شواعر
تعودن خفض العيش فى ظل والد ... رحيم وبيت شيدته العناصر
فهن كعنقود الثريا ، تألقت ... كواكبه فى الافق فهى سوافر
تمثلها الذكرى لعينى كأننى ... اليها على بعد من الارض ناظر
فطورا اخال الظن حقا وتارة ... اهيم فتغشى مقلتى السمادر
فيا بعد ما بينى وبين أحبتى ... ويا قرب ما التفت عليه الضمائر
ولولا امانى النفس وهى حياتها ... لما طار لى فوق البسيطة طائر
فان تكن الايام فرقن بيننا ... فكل امرىء يوما الى الله صائر
هى الدار ما الانفاس الانهائب ... لديها وما الأجسام الاعقائر
اذا احسنت يوما اساءت ضحى غد ... فاحسانها سيف على الناس جائر
ترب الفتى حتى اذا تم امره ... دهته كما رب البهيمة جازر
لها ترة فى كل حى وما لها ... على طول ما تجنى على الخلق واتر
كثيرة الوان الوداد مليية ... بأن يتوقاها القرين المعاشر
فمن نظر الدنيا بحكمة ناقد ... درى أنها بين الأنام تقامر
صبرت على كره لما قد أصابنى ... ومن لم يجد مندوحة فهو صابر
وما الحلم عند الخطب والمرء عاجز ... بمستحسن كالحلم والمرء قادر
ولكن اذا قل النصير واعوزت ... دواعى المنى فالصبر فيه المعاذر
فلا يشمت الاعداء بى فلربما ... وصلت لما ارجوه مما احاذر
فقد يستتيم الامر بعد اعوجاجه ... وتنهض بالمرء الجدود العواثر
ولى أمل فى الله تحيا به المنى ... ويشرق وجه الظن والخطب كاشر
وطيد يزل الكيد عنه وتنقضى ... مجاهدة الايام وهو منابر
اذا المرء لم يركن الى الله فى الذى ... يحاذره من دهره فهو خاسر
وان هو لم يصبر على ما اصابه ... فليس له فى معرض الحق ناصر
ومن لم يذق حلو الزمان ومره ... فما هو الا طائش اللب نافر
ولولا تكاليف السيادة لم يخب ... جبان ولم يحو الفضيلة ثائر

تقل دواعى النفس وهى ضعيفة   وتقوى هموم القلب وهو مغامـر
وكيف يبين الفضل والنقص فى الورى   اذا لم تكن سوم الرجال المآثـر
وما حمل السيف الكمى لزينـة   ولكن لأمر اوجبته المفاخـر
اذا لم تكن الا المعيشـة مطلب   فكل زهيد يمسك النفس صـابر
فلولا العلا ما ارسل السهم نازع   ولا شهر السيف اليمانى شـاهر
من العار ان يرضى الدنية ما جد   ويقبل مكذوب المنى وهو صـاغر
اذا كنت تخشى كل شىء من الردى   فكل الذى فى الكون للنفس ضائر
فمن صحة الانسان ما فيه سقمه   ومن أمنه ما فاجأته المخاطـر
على طلاب العز من مستـقره   ولا ذنب لى ان عارضتنى المقادر
فما كل محلول العريكة خائـب   ولا كل محبوك التريكة ظـافر
فماذا عسى الاعداء ان يتقولـوا   على وعرض ناصح الجيب وافـر
فلى فى مراد الفضل خير مغبـة   اذا شأن حيا بالخيانة ذاكـر
ملكت عقاب الملك وهى كسيـرة   وغادرتها فى وكرها وهى طائـر
ولو رمت ما رام امرؤ بخيانـة   لصبحنى بها والدهر فيه المعاير
ولكن ابت نفسى الكريمة سـوأة   تعـاب بها والدهـر فيه المعاير
فلا تحسبن المال ينفع ربـه   اذا هو لم تحمد قراه العشـائر
فقد يستجم المال والمجد غائـب   وقد لا يكون المال والمجد حاضـر
ولو ان اسباب السيادة بالغنـى   لكاثر رب الفضل بالمال تاجـر
فلا غرو ان حزت المكارم عاريـا   فقد يشهد السيف الوغى وهو حاسر
انا المرء لا يثنيه عن درك العـلا   نعيم ولا تعدو عليه المفاقـر
قئول واحلام الرجـال عوازب   صئول وافواه المنايا فواغـر
فلا انا ان ادنانى الوجد باسـم   ولا انا ان اقصانى العدم باسـر
فما الفقر ان لم يدنس العرض فاضح   ولا المال ان لم يشرف المرء ساتر
اذا ماذباب السيف لم يك ماضيا   فحليته وصم لدى الحرب ظاهـر
فان كنت قد اصبحت فل رزيـة   تقاسمها فى الأهل باد وحاضـر
فكم بطل فل الزمان شـباته   وكم سيد دارت عليه الدوائـر
واى حسـام لم تصـبه كلالة ؟   واى جواد لم تخنه الحوافـر
فسوف يبين الحق يوما لناظـر   وتنزو بعوراء الحقـود السرائر
وما هى الا غمرة ثم تنجـلى   غيابتها والله من شاء ناصـر
فقد حاطنى فى ظلمة الحبس بعدما   ترامت بأفلاذ القلوب الحناجـر
فمهلا بنى الدنيا علينا فاننـا   الى غايـة تنفت فيهـا المرائر
تطول بها الانفاس بهـرا وتلتوى   على فلكة الساقين فيها المـآزر
هنالك يعلو الحق والحق واضـح   ويسفل كعب الزور والزور عاثر
وعما قليل ينتهى الامر كلـه   فمـا أول الا ويتلوه آخـر

* * *

شاعر هذه العصماء هو رائد النهضة الشعرية العربية المعاصرة والذى عرفناه بلقب رب السيف والقلم محمود سامى البارودى . واذا كان لنا ان نقدم وصفا تاريخيا لحياته تحدده الارقام والسنوات والأيام فان حياته وشعره يظلان عصيان على هذا الوصف التاريخى لانهمـا

يتجاوزان حدود المصطلح الى مدار بعيد وعميق من العبقرية والثورة والالهام والبعث .

ولد محمود سامى البارودى فى السادس من اكتوبر عام ١٨٣٩ فى بيت اسرة البارودى بباب الخلق بالقاهره ابنـــا لأسرة جركسية . كان والده احد امراء المدفعية وجاء لقبه البارودى نسبة الى ايتاى البارود حيث كان احد اجداده ملتزما لها . ولقد اعطت الدنيا والموهبة للبارودى كل اسباب النعمة والبلاء اعطته . حظا عظيما من المجد وحظا كبيرا من التعاسة الشخصية . فهى حياة غنية بكل المعايير الانســـانية والفنية والاجتماعية والسياسية .

نشأ البارودى يتيما فقد مات والده وهو فى السابعة من عمره وبعد ان تلقى تعليمه الأول فى بيته شأن ابناء الطبقة الاروستقراطية وطبقـــة المماليك والترك فى ذلك العصر توجه الى المدرسة الحربية التى تخرج منهـــا فى عام ١٨٥٤ . ومـــا ان اكمل الشـــاعر الفارس تعليمــــه العســـــكرى حتى أظـــل عهد الخديو ســـــعيد حيث انتكســـت النهضـــــة التى بدأها محمد على وواجـــه البارودى فراغـــا لم يكن قد تهيـــأ له وهو فى فورة شـــبابه بل لقد اعد نفســـه للمغـــامرة وخوض المعارك . والهمته النـــار المقدسة التى خلقها الله بداخله أن يتجه الى تراث الشـــعر العربى بعصوره الجاهلية والاسلامية والاموية والعباسية ينهل من منابعها . فاستوطن وجدانه هذا الشعر وفى عصوره الذهبية وما أن ذاق رحيقه حتى توهجت النـــار وفاضت موهبته شعرا غير مألوف فى عصره . كان شعراءعصره هم عبد الله فكرى ومحمود صفوت الساعاتى وعبد الله النديم وكان هؤلاء أفضل من الجيـــل الذى سبقهم والذى سقط شعراؤه فى الزخارف اللفظية والعلل النحوية والاغراض الاجتماعية السقيمة فجاء البارودى بمزمار جديد على العصر تـــرن فى انغامه كل عصـــور الشعر العربى الغابرة . فى الوقت الذى كانت فيه لغة الحياة نفسها أبعد ما تكون عن الصحة اللغوية فضلا عن الفصاحة العربية والبلاغة الادبية .

اتسعت ثقافة البارودى بسفره الى الاستانة موظفـــا فى وزارة الخارجية وتعلمه للغتين التركية والفارسية وعكوفه على درس آدابهما فى الاصول اللغوية لهذين الادبين غير انه ظل وفيا شـــديد الوفاء للشعر العربى واستجابة لهذه الفطرة الادبية النادرة جلس على شاطىء البسفور يتغنى بشـــعر الامويين والعباسيين الذى كان صداه بالغ العمق فى وجدانه المرهف .

وما أن عاد البارودى الى مصر حتى أظل عهد جديد هـــو عهـــد الخديو اسماعيل الذى حاول النهوض من جديد . ورقى الشاعر الى

رتبة القائمقام . وفى عام ١٨٦٥ اصبح قائد الفيلق الرابع من حرس الخديوى ثم جاءت حرب كريت وسافر البارودى على راس حملة من الضباط والجنود المصريين لاخماد ثورة جزيرة كريت التى كانت تابعة للدولة العثمانية وابلى الشاعر بلاء عظيما انتهى بالنصر . وتنبهت له العقول والانظار وحظى الشاعر الفارس بمكانة عالية فى وطنه واشترك مرة اخرى فى الحرب العثمانية الروسية عام ١٨٧٨ وتجلت فيها شجاعته وكوفىء برتبة أمير اللواء وكان الشعر يتأجج فى قصائد تصف هذه المعارك الحربية مبطنة بحنين جارف الى مصر ، وحين عاد الى مصر عين مديرا للشرقية ثم مديرا للاوقاف . وقد وضعته روحه الوطنية وشجاعته وشعره فى قلب الحركة الوطنية والقومية وتولى وزارة الحربية ونالت منه المؤامرات حتى أراد الاعتزال فى مزارعه ولكنه كان علما من اعلام الحركة الوطنية متعاطفا ولكن على درجة من الحذر مع الثورة العرابية وما أن فشلت هذه الثورة التى قامت لتحقق الكرامة الوطنية والاستقلال السياسى ولمقاومة النفوذ الاجنبى . ما أن فشلت هذه الثورة حتى أخذ البارودى مع قادتها وعوقب معهم بالنفى الى جزيرة سيلان . وما كان للخونة وحلفاء الاستعمار أن يغفروا له بلاءه العظيم فى خدمة الحركة الوطنية وشعره الغيور على مصلحة الوطن وحب المصريين له وحماسه الدائم للاصلاح السياسى والاجتماعى. وقضى الشاعر سبعة عشر عاما فى المنفى كانت من أقسى المحن فى حياته ولكنها كانت فى نفس الوقت فرصة الشعر الذهبية لكى يترعرع فى صومعة الالم والحنين الجارف . وظل الشاعر يعانى الغربة والوحشة وهو بعيد يرى أسرته الصغيرة يتخطفها الموت وأسرته الكبيرة يستبد بها الخونة والطغاة وحلفاء فرنسا وانجلترا فيلجأ الى الشعر الغذاء والدواء . ولكن الجسد لا يكاد يحتمل كل هذه المعاناة وهو يواجه الزمن بكل ثقله وجبروته فيضعف البدن ويذوى ويكاد البصر نفسه أن يرحل هو الاخر ويصدر أمر من الخديو عباس حلمى فى ١٧ مايو ١٩٠٠ بعودة المنفيين من أقطاب الثورة العرابية وفى مقدمتهم الشاعر محمود سامى البارودى الذى يصل الى مصر ولكنه لا يلبث بها طويلا ففى الثانى عشر من ديسمبر عام ١٩٠٤ تصعد روحه الى بارئها بعد رحلة طويلة فى رحاب المجد والشعر والمحنة والعبقرية والوطنية يقول : الدكتور محمد حسين هيكل فى مقدمة ديوانه عن شعره .

« شعر البارودى حياته . فكل قصيدة فى ديوانه صورة لحالة نفسية من حالات هذا الشاعر الملهم . والديوان فى مجموعه صورة للعصر الذى عاش فيه وللبيئة التى أحاطت به وللنهضة المتوثبة فى الحياة حوله وللثورة التى تمخضت عنها تلك النهضة وللنكسة التى اصابت النهضة والثورة كلتيها والتى نقلت الشاعر من وطنه الى منفاه ليقيم به سبعة عشر عاما وبعض عام يستأثر الشعر بها جميعا وقد اختار البارودى فى اثناء نفيه أجود ما قيل من الشعر فى العصر العباسى وقال أجود مما اختار . فبعث الشعر العربى خلقا جديدا وشعر المنفى

كشعر الشباب وشعر الكهولة صورة صادقة لهذه الحياة التى اراد لها القدر أن تكون نغما من الانغام ، تسمو بها النشوة الى ذروة السرور والطرب حينا ويدفعها الطموح الى مضطرب الثورة والمثل الاعلى حينا آخر ثم تصقلها السنين ويصقلها النفى فاذا الحكمة والحنين والحب تبعث الى هذا النغم سكينة تسمو على المألوف من الحان الحياة لا يغير من ذلك ما يدفعه النفى الى نفس الشاعر من الم تترجم عنه صيحات ثائرة تعيد أمام أذهاننا صورة من نزوات شبابه وثورة كهولته » .

تكشف هذه القصيدة بعد تأملها عن عالم البارودى بأبعاده الفنية والانسانية الواسعة . فهى تمثيل بالغ الحساسية والاصالة لنموذج القصيدة البارودية التى تنتمى الى شاعرها بقدر انتمائها الى عالم القصيدة العربية فى أزهى عصورها قد تحس وأنت تطالعها أن أنفاس عمالقة الشعر العربى تتردد فى أبياتها ومقاطعها وأن جرسها شائع فى قصائد المتنبى والبحترى وأبى العلاء وأن لغتها جزلة جزالة القصائد العباسية بل ان صورها الشعرية توشك أن تكون شائعة فى الشعر العربى القديم ومن ذا الذى يمنع نفسه من تذكر امرىء القيس والنابغة الذبيانى وهو يقرأ وصف البارودى لليل . ولكن هذه الالفة الشديدة فى اللغة والموسيقى والصور الشعرية والبناء الفنى الذى ينتقل من غرض شعرى لاخر هذه الالفة لا تحملك على التنكر للشاعر وأصالته ولا تحملك على التماس جذور صوره فى قصائد الاخرين حتى تسهو عن شاعرها الحقيقى بل انك لتشعر بقوة باحساسين متعارضين سرعان ما يصبحان احساسا واحدا . القصيدة تبسط عالم القصيدة القديمة أمام وجدانك فهى جياشة بالحس التاريخى العميق ولكنها تتفرد بصياغة أصيلة تحس عبقها ولا تدرك كنهها . واذا كانت التجربة تصنع الشكل فان تجربة البارودى المتميزة فى الحياة تتبدى بالغة التميز فى شكله أيضا فهو حين يصف الليل لا يصفه شاكيا ولا باكيا ولا يلحقه الوهن بل هو جلد على حوادث الايام صابر على بلائها وينعكس صبره وجلده فى هذا التركيز والتماسك فى بنية الجملة الشعرية . وكذلك تنعكس شخصيته وتجربته بقوة فى اختيار بحر الطويل بامتداده وثقله واتساعه لامواج النفس الملتاعة ولكنك لا تحس ضعفا ولا رغبة فى الافضاء بل هو يمسك بأطراف تجربته التى تتنوع بين تجسيد حلم الزيارة التى قامت بها سميرة وبين التجلد اعتمادا على ايمان بالله عميق وقد يجنح الى الفخر حيث يظل الشاعر متنبها الى جوانب العزة والقوة فيه ولكنه لا يفرط فى ذلك ويكاد يصل الى أن مناط القوة والمجد انما هو الحكمة والفضيلة وليس المال والنعيم والجاه الكاذب . هو شاعر يقرأ على قسمات جراحه آيات من الحكمة والتواضع والتجرد من الاشياء التى يراها الان باطلة كل البطلان .

ان القصيدة تبدأ من الحلم العزيز الذى يرى فيه الشاعر خيال ابنته سميرة يزوره متخطيا الفيافى والبحار والاماد البعيدة والليالى

المظلمة . ويبدو أن قوة الشوق الغلابة فى ضميره قد جعلته يصرح من البداية ان هذا الخيال الذى جاءه ليلا انما هو تجسيد لقوة مخيلته التى تستحضر هذه الابنة على جناح الشوق . لكأنه يصارحنا من البداية انه يعانى من البعد عن اهله ولا وسيلة له الا الخيال القوى . وينسى الشاعر بعد وهلة عابرة أنه صارحنا فيتمادى فى وصف هذا الخيال وكأنه يتصور أننا مازلنا مقتنعين بأن الزيارة حقيقية فى الواقع وينتقل من وصف الظلام الذى قطعه الخيال الى وصف الخيال وصاحبته بل وصاحباتها اللواتى تلهو معهن ثم يعود مرة أخرى بعد أن تناسى أنه قد صارحنا بحقيقة خياله ليؤكد أن الذكرى هى التى تجسد لعينيه هذه الابنة الصغيرة التى لا يزيد طولها عن خمسة أشبار فهى طفلة تحتاج الى حنان الاب وعطفه . والشاعر يلجأ الى هذا المدخل الرقيق حتى يعطفنا بقوة على محنته دون أن يجد نفسه مضطرا الى التصريح عن مشاعره مفضيا الينا من البداية بوجيعته . ان كبرياء الشاعر الفارس تظل عصية تغالب المكروه فى هذا المنفى البعيد فلا تنحنى ولا تضعف وحتى حين يفيض به الوجد فيصرح بعاطفته الابوية والانسانية لا تجدبدا من احترام هذه المشاعر القوية حين يقول :

فيا بعد ما بينى وبين أحبتى ويا قرب ما التفت عليه الضمائر
ولولا أمانى النفس وهى حياتها لما طار لى فوق البسيطة طائر

وكأن البيت الثانى انما هو اعتذار عما افضى به الشاعر من تخيل احبابه يزورونه فى المحنة أو هو يستحضرهم اليه وهنا تتجلى شخصية البارودى الشامخة التى يجعل تجربته مفارقة لتجارب الاقدمين من الشعراء ونجد تعبيره يختلف عن تعبيرهم أيضا . فالشعراء الاقدمون لا يأبهون للتبرير والتفسير والاعتذار عما فى نفوسهم هم ماضون وحدهم فى بيداء يطوف بها الموت والغربة من كل جانب وليس لهم ذلك المجتمع الذى كان لدى البارودى ولا كان لديهم هذا الضمير الحديث الذى يكبل الفرد بأغلال التحضر ومراعاة الاخرين فى الافضاء واعلان هوى النفس . ولكن البارودى لا يرى أنه قد اتى شيئا يلام عليه فينصرف حتى لا تستولى عليه العاطفة العميقة الى التأمل الفلسفى الذى يتوكأ على ايمان عظيم بالله واستخفاف حقيقى بهذه الدنيا واعتقاد بأنها لاتحسن الا لتسىء ولا تزيد من قيمة المرء الا لتقتص منه بل لتقتله كما يذبح الجزار بهيمته بل انه يرى فيها صورة المقامر . هذه الصورة العصرية التى تنتمى الى عصرنا بمعاييره وقيمه . حتى وهو تتودد اليه وهى كثيرة التودد نراها جديرة بأن يتجنبها العاقل الرشيد .

كثيرة ألوان الوداد مليئة بأن يتوقاها القرين المعاشر

هى امرأة خائنة هذه الدنيا أدن وهو منها على حذر . ولكنه لايلبث أن يتذكر قدرة الله وأمله فيه هذا الأمل الذى تحيا به الأمانى وتضىء الظنون به وسط المحن .

اذا المرء لم يركن الى الله فى الذى يحـــاذره من دهـــره فهو خاسر

ويبدو أن التماس الايمان انما هو حصنه الذى ينشده حتى لا تتداعى قواه التى يرى أن اختبارها فى الملمات هو أمر طبيعى . فكل ما يـكابده البارودى انما هو تكاليف السيادة ومطلب من مطالب العلا وداع من دواعى النفس القوية ثم يجاهر بنفسه برفضه للدنية رفض الغاضب الذى لا يقبل لنفسه الهوان وهو يبرهن على صحة دعواه برفع قيمة الشجاعة فى الحق وعدم الخوف من الدنيا .

اذا كنت تخشى كل شىء من الردى فمن صحة الانسان ما فيه سقمه
فكل الذى فى الكون للنفس ضائر ومن أمينه ما فجـــأته المخـــاطر

ويبدو أن هذا التمهيد كان مدخلا منطقيا للون من الفخر بالنفس ربما كان غير متوافق مع هذه الحكمة التى تزدرى الدنيا ولكنها أيضا فى موقف الدفاع عن النفس . فلو انه استسلم للزهد والحكمة التى تقول ببطلان الحياة لخلت القصيدة من القيمة الايجابية التى تنفع الحياة نفسها ومن هنا نرى أن هذه القصيدة لا تلتف على غرض شـــعرى واحد تستنفده وتفنيه وتفنى معـــه بل هى شجرة كثيرة أوراق الحزن . بعيده الاغصان فى رؤيـــة تهـــزها ريح المحنـــة ولـــكنها لا تنكسر أبدا فى يد هـــذه الريح ورغم أن الشاعر يصف ظلمه المحنـــة التى تلم به فهو يرى ذلك أمرا عارضا .

وأى حســـام لم تصـــبه كلالـــة ؟وأى جـــواد لم تخنـــه الحوافر
ويعلن عن ايمان بالحق ونكران للباطل :

ومـــا هى الا غمـــرة ثم تنجـــلى غيابتهـــا واللـــه من شاء ناصـــر

والقصيدة التى تبدأ بالحلم وتعلو أمواجها الى الفخر تنتهى بالتسليم بعد أن يكون قد كشف بجلاء عن جوهر شخصيته وتجربته وعصره فى لغة بليغة تريك لغة عصور بأكملها ولكنها تظل ملكا أصيلا لشاعرها الذى أبدعها . ومن هنا لا نستطيع أن نقول أن القصيدة رغم جنوحها الى الحكمة والفخر والحنين والايمـــان بالله والتسليم متعددة الاغراض بل قصـــيدة واحدة الغرض بالغة الدلالة من ناحية الشكل الفنى ومن ناحية التجربة على شخصية الشاعر محمود سامى البارودى وهكذا تلتقى القصيدة مع القصائد القديمة وتفترق عنها كما يقترب الابن من الاب ويفترق عنه لتكون له قسماته وأقدار حياته .

محمـــد ابراهيم أبو سنه



فهرس

رقم الايداع ٢٨٨٦/٨١.

الترقيم الدولى ٧ — ٢٨ — ٧٣١٥ — ٩٧٧

مطبعـــــة
مؤسسة يوم المستشفيات
١ شارع بستان الخشاب بالمنيرة
القصر العينى — القاهرة



